يوميات ذاكرة منهكة

صور قصصية

عيد إسطفانوس

الكتاب: يوميات ذاكرة منهكة (صور قصصية)

الكاتب: عيد إسطفانوس

الطبعة: ٢٠٢٣

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣
http://www. bookapa.com **E-mail:** info@bookapa.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

إسطفانوس، عيد
يوميات ذاكرة منهكة (صور قصصية) / عيد إسطفانوس
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
١١٧ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولي: ٨ – ٦٠٨ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع: ٢٠٢٢٣ / ٢٠٢٢

يوميات ذاكرة منهكة

صور قصصية

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

إهداء

إليكم

يا كل من تبيتون ليلتكم باكين خائفين

يا كل من يقهركم الناس ويذلونكم عامدين

يقهرونكم ويرهبونكم

بسبب عقائدكم

أو لون جلودكم

أو أعراقكم

أو أرائكم

يا كل من تبيتون ليلتكم في العراء

لاجئين مذعورين

يا كل من تبيتون ليلتكم حزانى مسبيين

مسبيين في أوطانكم

أو في غير أوطانكم

يا كل من تبيتون ليلتكم جالسين القرفصاء

عيونكم شاخصة

على مزاليج أبوابكم

على أوتاد خيامكم

على مضاجع أطفالكم

أطفالكم النيام جياع

أطفالكم النيام بعيون خائفة دامعة

أطفالكم النيام بعيون نصف مغمضة

ثقوا.. الفجر قريب

مقدمة

آه لو عاد الزمان

آه لو عاد المكان كما كان

آه لو عاد الأحبة والخلان وكنا معاً الآن

ويفيض النهر

ويكتمل البدر

ويكف الزمن عن السريان

وتكف الأرض عن الدوران

آه يا ربا الأحلام سأعودك حتى تعود البهجة تلمس قلبي

سأعود أعودك يوماً ثان

كي لا تجف الذكرى

كي نصمد في وجه الأحزان

الصورة الأولى

حكاية عبد

وعبد هي اختصار للاسم – عبد الحميد أبو مرسي– وهو رجل خمسيني ذو ساق معطوبة، ووجه داكن لا يعرف أحد على وجه اليقين – أو نحن الصغار وقتها على الأقل– من أين جاء؟ وعدا بعض المقولات المتناثرة هنا وهناك عن نشأته وأصوله، لم نكن نعرف شيئًا عنه سوى أنه موجود كل يوم منذ الصباح الباكر، يجلس على عتبة البوابة الخشبية العتيقة، يدخن لفافات تبغ يعدها بنفسه من علبة من الصفيح الصدئ، مادا ساقه المعطوبة موازية لعصا لا تفارقه أبدا، ولم يكن له وظيفة نعرفها سوى أن يهرع الأطفال إلى حضنه للاحتماء به من عقاب أمهاتهم طيلة النهار.

كانت عمتي الكبرى قد تزوجت من أكبر أبناء عمتها المتزوجة في القرية المجاورة من غبريال أفندي خريج المهندس خانه، الذي اشتهر بأنه الميكانيكي الأول والوحيد هو وأولاده على مدى منطقة تمتد أكثر من خمسين ميلا على جانبي النهر في أواسط الصعيد الأدنى، وكانت تلك المعدات، من جرارات زراعية ومحاريث ورافعات مياه ومولدات كهرباء، حديثة العهد في أربعينيات القرن الماضي، وبالطبع ملاكها هم أعيان المنطقة وإقطاعييها، ولبراعته وندرة مهنته حصد غبريال أفندي أموالا كثيرة. وفي المقابل كان مبذرا أكول ومقامر وشريب خمر وأشياء أخرى. وفي أواسط الخمسينيات وافته المنية، ولم يرث أولاده منه سوى المهنه

والبيت القديم المتهالك ومعهم – عبد– جالسا على بوابته العتيقة وبالطبع ورثوا لقب أولاد غبريال.

بعد رحيل (غبريال أفندي) تناسل الأبناء الثلاثة وتوارثوا عملاء أبيهم من الأعيان على ضفتي النهر، يتغيبون طيلة الأسبوع ويعودون مساء السبت؛ حيث الموعد مع الحلاق وإزالة آثار أسبوع من الزيوت والشحوم وفي الصباح الكنيسة ثم الغذاء الرسمي؛ حيث يعتلي الجميع المصطبة الكبيرة حول الطبلية الواسعة لتناول الوجبة الأسبوعية الدسمة. وكان عبد الحميد يتناول غذاءه مكانه على عتبة الدار، تناوله عمتي طبق الطبيخ وقطعة لحم وبعض الأرز والخبز، يأكل الجميع ثم يتسامرون –بما فيهم عبد– على صوت وابور الجاز ورائحة الشاي الأسود تعبق المكان، ثم يتفرقون كل إلى حجرته وتنسل خلفهم النساء لقضاء قيلولة الأحد، بينما يظل الأطفال يلعبون في حراسة عبد في موقعه الأثير على عتبة البوابة مادا ساقه المعطوبة موازية لعصاه التي لا تفارقه أبدا.

كانت الأبعاديات الكبيرة قد تفتتت بعد الثورة وركدت الأنشطة مما انعكس سلبا على دخل العائلة، وتشاور الأبناء في أشياء كثيرة، منها أن يستقل كل منهم بمعيشته والأم مع الابن الأكبر كالعرف الساري، واتفق على موضوع عبد الحميد بأن يتولى الابن الأكبر مسألة الإعاشة اليومية من المأكل والمشرب، بينما الأخ الأوسط يتكلف بالكسوة السنوية: جلباب من الكستور في الشتاء وجلباب من الدمور في الصيف وصديري كل سنة مع غيارين داخليين، ويتولى الابن الأخير مصاريف التبغ والحلاقة، أما العيدية فيتقاسمها الثلاثة في المرتين الفطر والأضحى.

قبل أن تستديم جلسة عبد على عتبة البوابة العتيقة كان دائم الخروج في العصاري؛ ساعات يمشي متوكئا على عصاه ناحية النهر، وساعات ناحية دكان أحد معارفنا يتسامر حتى موعد الغروب، ثم يعود تعطيه عمتي عشاءه يليه كوب من الشاي، ثم يشعل لفافة تبغ ويتوارى إلى أحد الغرف الداخلية المهجورة. ولم تختلف أي من تفاصيل هذه المنظومة سنين طوال، حتى لاحظناه مرات يأتي مهموما يرفض العشاء ويأوي إلى مكانه، ولم يستمر استغرابنا طويلا وعرفنا السبب؛ حيث كان يشيعه بعض الصبية بعبارات مثل (خدام النصارى)، بالإضافة لمعايرته بعرجه، وأشياء أخرى لم نستوعبها في حينها لغرابتها، لكنها ظلت مثار حديث وجدل وشد وجذب وتدخل العمدة وشيخ البلد وجلسات عرفية متوالية في المندرة الخارجية.

بعدها مباشرة نصح زوج عمتي عبد بضرورة عدم الخروج كثيرا (هذه الأيام)، مدعيا الإشفاق عليه لعطب ساقه وضعف بصره، واستمع الرجل للنصيحة سريعا. ومن يومها –وكنا في أوائل السبعينيات– اتخذ عبد موقعه على العتبة مادا ساقه المعطوبة موازية لعصاه التي لا تفارقه أبدا، لكن مسحة حزن مكتوم كانت قد كست وجهه منذ تلك الواقعة، وسرعان ما خلا موقعه على العتبة فلم يعد يغادر مكان نومه، تدخل له عمتي بوجباته مرة يقبلها ومرة يرفضها حتى أصبح يرفضها باستمرار، لم يستغرق الأمر طويلا فقد تدهورت حالته سريعا، ثم بدا الارتباك واضحا على الجميع؛ فالرجل في النزع الأخير ويلزم له طقوس مغايرة طبقا لعقيدته يجب أن يتولاها أبناء جلدته.

فاضت روح عبد الحميد عند الظهر، اتشحت النساء بالسواد بسرعة، وعاد الرجال من أعمالهم على عجل، وانزوى الصغار في ركن يرقبون الأحداث. جلب الجيران الخشبة المستطيلة ذات الأذرع الأربعة من خلف المسجد العتيق، وتطوع جار عجوز بالغسل والتكفين، ووضعوه في الخشبة ولم ينسوا عصاه التي لم تفارقه أبدا، وتبعناه إلى المسجد الذي فوجئنا به مغلق على غير العادة، وتطايرت الأخبار بسرعة؛ فقد رفض الإمام الصلاة عليه بحجج كثيرة قيلت وقتها ولم نفهم حينها ما يجري، إلا إنني لا زلت أحتفظ بمشهد زوج عمتي يصيح بأعلى صوته أمام المسجد –وكان قد تجمع كثيرون–: "إن لم تصلوا عليه الآن سوف ندفنه دون صلاة في مقابر الصدقة وعليكم سيقع ذنبه". سرت همهمات قطعها شيخ البلد الذي كان قد حضر للتو وأمر بفتح المسجد، وأشار لأحد الواقفين ليؤم الصلاة التي لم تستغرق سوى دقائق، ثم قذفوا الخشبة خارج المسجد، وحملها الرجال مسرعين للدفن قبل المغيب سالكين أقصر الطرق لاختصار الوقت، لكن دونما سبب واضح سلكت الجنازة طريق العودة إلى بيت غبريال أفندي. وأمام البوابة العتيقة توقف النعش فجأة وأبى أن يتحرك – هكذا قيل– في مشهد غريب، وفهمنا بعدها ما معناه أن عبد الحميد –في نعشه– غير مسار الجنازة ليكون طريقه الأخير من أمام بيت غبريال أفندي. وخرجت النساء وخرج الأطفال والدموع في مآقيهم، يلوحون بأيديهم لوداع عبد الحميد إلى الأبد، وانطلق الرجل –بعد أن اطمئن لوداع الجميع– إلى مثواه الأخير، ومعه عصاه وأسرار كثيرة دفنت معه. ورحل عبد وتغيرت أشياء كثيرة في قريتنا الهادئة، وكنا في منتصف السبعينيات وأصبحنا نؤرخ بقبل وبعـــــد (رحيل عبد).

هوامش

(١)

بالأمس سرت في دروبك مشتاقا بعد غياب طويل

دليلي كان خارطة القلب القديمة

سألت عن الأماكن الحبيبة

سألت عن الوجوه الحبيبة

تعبت من السؤال وتعبت من التجوال

الأشياء لم تعد لها نفس الأسماء

والمدلولات ضاعت

ولم يعد سوى إسقاطات

وتبدلت سمات النساء والرجال

جلست أستريح قليلا

اقترب كهل متغضن الوجه، تفرس في وجهي، سألني:

هل أنت من كنت يوما هنا؟

أجبت بفخر (بينما أشير بذراعي المفتوحتين):

نعم أنا من كان يوما هنا

فجأة انتابني إحساس بالغربة

فالمكان لم يعد نفس المكان

سألني الرجل الكهل مرة أخرى:

من أي عصر أنت؟

أجبت:

من عصر الوجوه السمحة

عصر الألسنة العفيفة

عصر العيون الخفرة

عصر المشاعر النبيلة

عصر النساء الجميلات اللائي كن يغطين رؤوسهن بشعور طويلة.

الرجل الكهل غيم الحزن على وجهه، ومد كفه المهزوزة وأسندها على طرف كتفي، وقرب وجهه إلى أذني وبعيون دامعة وصوت متهدج خفيض همس:

اذهب يا بني من هنا فلم تعد هذه الأرض هنا ،فقد حدث أنه ذات يوم أسود انشقت السماء عن ثقب أسود وابتلع هذا العصر الجميل، وجاء غرباء مسخوا عصرا جديدا حفروا نفقا إلى الماضي..

نفق طويل طويل

وكل يوم يستطيل

(٢)

سحجات الحزن على وجوه الناس بدلت الملامح

لم أعرفك يا دربنا

هل أنت من كنت؟

أم لم أعد أنا ؟

أهذه أرض غريبة؟

أين الحبيبة؟

أين الأغاني؟

أين الرفاق؟

أين الزهور والزروع؟

أين عشية العيد؟

أين السماء والطيور؟

أين النهر والأشرعة؟

آه وليت يا زمن الهنا

وبقيت بقايانا تتلو في سفر الأحزان

وكان صباح وكان مساء

وكان ما كان

ولم يعد الفتى المتأنق

عادت بقاياه تبحث في درب الأحزان

عن ذكرى إنسان .

الصورة الثانية

رائحة الموت

جارتنا هي قابلة القرية الوحيدة استدعيناها وجاءت على عجل عندما جاء المخاض لأمي، كانت الشمس على وشك المغيب، كانت أمي على فراشها تحتضني وهي تتألم وتبكي، نصحتني جدتي بالذهاب للعب مع أقراني في بيت جارتنا، ولا زلت أذكر شدة قبضة أمي على كفي الصغير وهي لا تريد أن أذهب، تركتني بعد قبلات دامعة حارة ونظرات لم أكن أعلم أنها الأخيرة، لعبت ونمت واستيقظت في الفجر على صوت الصراخ، هرولت إلى الشارع واندفعت نحو باب بيتنا، اقتحمت أذرع كل النساء الممدودة كالمتاريس لتمنعني من الوصول لفراش أمي، لكنني وصلت إليها، نزعت الغطاء عن وجهها وكان لقائي الأول مع الموت؛ وجه أمي شاحبا وملامحها ساكنة. انتظرت حضنا أو قبلة لكن شيئا لم يحدث، ولم أدري ماذا أفعل؟ أحسست أنني وحيد ولم أعد أسمع شيئا؛ لا صراخ النساء ولا نحيب جدتي، وتسلل إلى روحي شعور الخوف الممزوج بالحزن والضياع، وتشبثت بقائم السرير لأبقى بجوارها، وكل لحظة كنت أحس أن أمي على وشك أن تفتح عينيها، وعندما جاء الرجال بصندوق خشبي فارغ ووضعوه بجانب فراش أمي عرفت بقية السيناريو، سيضعوا أمي في الصندوق ويغلقونه ويأخذونها إلى الصحراء، وفعلوا، وبقيت متشبثا بقائم السرير.

ومرت ستة عقود على الحدث، كبرت وتزوجت وأنجبت أولادا

وأحفادا، وأشعر أنني لا زلت متشبثا بقائم السرير منتظرها تفتح عيناها؛ لتمنحني حضنا أو قبلة من ذاك الذي لم أذقه منذ رحلت عني، ومنذ ستة عقود لم يسقط حرف ولا مشهد من شريط الحدث، فهو جاهز للعرض في أي لحظة بضغطة واحدة على زر في لوحة مفاتيح آلة الذكريات التي تعطلت فيها كل الأزرار، عدا واحد يعرض الحدث بمنظور رباعي الأبعاد؛ صوت وصورة وزمن ورائحة فراش أمي أو رائحة الموت التي عششت في خياشيمي ولم تنمحِ حتى اليوم.

هامش

عودي يا أمي!

اشتقت إليك

أخشى أن تضمر تفاصيل ملامح وجهك بفعل السنين

الذاكرة كلها ضمرت يا أمي عدا المشهد الحزين

المشهد المحفور في عظام الجمجمة

جسدك النحيل المسجى على فراشنا الفقير

وأذرِع النساء الطويلة كالمتاريس تحول بيني وبين حضنك

والقبلات الدامعة على خدي الصغير

وأنا تائه في موكب رحيلك

والصندوق الخشبي على أكتاف الرجال

الذين خطفوك إلى الصحراء مسرعين
وارتجاف الخوف والبرد فى باكورة ليالي اليتم
عودي يا أمي أنا اليوم في عمر جدك
وأشتاق إلى حضنك
السنون تراكمت يا أمي
والأحزان تراكمت والجسد وهن
والجراح تمددت يا أمي
بفعل الزمن
فتاك المدلل يا أمي
غرق في بحار المحن
عودي يا أمي ..أذكر عندما بللت فراشي مرة
كان العقاب نظرة عتاب
لا زلت أذكر هذه النظرة الحنونة من عينيك الصغيرتين
نظرة صنعت مني رجلاً صغيراً
ولما سترتني
تعلمت لأجلك كيف أستر الناس؟
كيف أهزم الخوف والخجل؟

عودي يا أمي .. أخشى أن تهزمني السنين

أخشى أن أبلل فراشي مرة

تُرى لو هزمتني السنين الآن وبللت فراشي مرة

تُرى من يسترني هذه المرة؟

هل يسترني الأبناء؟

هل تسترني الألقاب؟

عودي يا أمي الصغيرة حتى لو كنت في عمر جدك

أريد أن أختبئ في صدرك .. لا أريد أبناء ولا ألقاب

عودي يا أمي الصغيرة

أريد أن أبتاع لك هدية كما يفعل بقية الأبناء

لكن المشكلة ماذا يشتري رجل عجوز لأمه الصغيرة؟

أود لو أشتري لك عمراً جديداً

لكن للأسف يا أمي الصغيرة

المتاجر لا تبيع هذه الأيام سوى التوافه والأشياء الصغيرة

(٢)

نحن في انتظارك

نحن في انتظارك يا لعنة السماء

يا سيد حقائق الحياة

يا أجرة الخطاة

نحن في انتظارك أيها اللص

يا سارق كل الأشياء

نحن في انتظارك

نقطع الوقت

نسرد حبات المسبحة

نلعب النرد

نقاوم زحف الأيام

على رؤوسنا

على وجوهنا

على خلايانا

نحن في انتظارك

يا عدونا الأزلي

يا ماحي كل الأسماء

الصورة الثالثة

حكاية قديمة

كان ضحى مشمس، وكنا في إجازة نصف العام نلعب جميعا الأولاد والبنات في باحة البيت الواسعة، وعندما حضرت السيدة العجوز ودخلت من البوابة لاحظت هرولة بعض البنات واختفائهن في الغرف الداخلية. احتفى النساء بالوافدة ، ويبدو أن الزيارة كانت مرتبة، جاءت عمتي وسحبتني إلى ركن من الباحة، وأعطتني ورقة من فئة عشرة قروش، وغلاف فارغ عليه شعار لشفرة حلاقة كانت أيامها ذائعة الصيت، ومالت إلى مستوى أذني هامسة بتفاصيل المهمة العاجلة: عليَّ أن أحضر علبة شفرات حلاقة من النوع الذي أعطتني غلافه الفارغ بالذات وفي أسرع وقت وفي سرية تامة، ولم تنس عمتي الإشارة إلى أنه سيتبقى قرش من القروش العشرة هو مكافأة سرعة إنجاز المهمة.

السيدة العجوز كانت في أواسط الستينات تقريبا، على وجهها مسحة جمال قديمة، باسمة باستمرار، كاشفة عن أسنان بعضها من الفضة اللامعة، ويتدلى على جانب جبهتها من تحت منديلها المعقود خصلة شعر مصبوغة بالحناء، ودائما هي كحيلة العينين.

بحافز القرش عدوت إلى الدكان وكان في أقصى غرب القرية، وأحضرت المطلوب وأنفقت نصف القرش، وعدت كما ذهبت عدوا ووجدت عمتي في انتظاري، مدت يدها قبل أن أصل إليها وخطفت علبة الشفرات، وأسرعت إلى الداخل شبه مهرولة.

لم أجد رغبة في استئناف اللعب مع بقية الأولاد، ولم أستطع الربط بين الأحداث، وما علاقة حضور السيدة العجوز مع المهمة العاجلة التي قمت بها الآن، واختفاء البنات، وبعض الترتيبات الغريبة مع عدم وجود رجال في البيت؛ فكلهم خرجوا للعمل منذ الصباح الباكر مع شبه احتفال باهت وابتسامات خجولة ونظرات مترقبة وتحركات مضطربة.

كنت أرى السيدة العجوز دائما في أفراح القرية في مشهد واحد؛ تلوح بيدها اليمنى بقطعة قماش بيضاء ملطخة بلون أحمر غامق، وبجوارها والد العروس؛ تتلقى هي قطع النقد وأوراقه في منديل بيدها اليسرى، ويتلقى هو التهاني من المدعوين. مر بعض الوقت بعد أن اختفت عمتي في الغرف الداخلية، وبدا أنني أسمع صرخات مكتومة، اقتربت وأصخت السمع وتبينت لمن هذه الصرخات، لكن الأسباب ظلت مبهمة وغائمة في عقلي الصغير، لكني أيقنت أن السيدة العجوز وعلبة شفرات الحلاقة التي أحضرتها هم صناع المشهد الحادث الآن. فقد خرجت السيدة العجوز مبتسمة تفوح منها رائحة نفاذة، كتلك التي نشتمها في طرقات المستشفيات، واتجهت مباشرة حيث تجلس جدتي التي كانت قابضة بيدها على ما يبدو أنه ورقة نقد كبيرة، وأظنها فئة الجنيه فقد لمحت لونها الأخضر وجزء من صورة الملك، ثم دسته في صدر الحاجة عيشة، التي تمنعت بحذر عن قبوله مجاملة مع عبارات التمني الروتينية بطول العمر الجدة حتى ترى نسلهن.

من هنا أيقنت أن ما حدث هو للفتاتين الكبيرتين في الأسرة بنت عمتي وبنت عمها، لكن ماذا حدث؟ لم أكن أعرف عدا مبهمات يتهامس به الفتيان الأكبر سنا، ولم أكن أجرؤ بالطبع على السؤال.

لا أتذكر الآن ماذا اشتريت بنصف القرش، لكن ما أتذكره أن البنات خرجن بعد أسبوع شاحبات مع مسحة خجل على وجوههن، تحسست نصف القرش الباقي في جيبي، وطالني إحساس أنه ثمن جريمة أخرجته وطوحت به قدر ما استطعت.

هوامش

(١)

الفتنة مختبئة

لا نريد أن نرى وجهها

فليكن مغطى أو فليكن مشوها

الفتنة نائمة بعين نصف مغمضة

ملعون من يمس هدب ثوبها فيكفينا من المعارك أمها

وإذا كانت تريد أن تمشي في الشوارع فيكفيها عينها

فهي لا تحتاج أن تعلن عن تاء الكارثة فيكفيها ما جرى لها

يوم أن أوثقتها أمها

لا نريد أن نرى وجهها

فيكفيها ما جرى لها يوم سالت دمائها

ويكفينا ما جرى لنا

يوم أن سحرتنا الخدود والشفاه

وعيون آلمها

لما سال دمعها

يكفيها ما جرى لها

ويكفينا ما جرى لنا

افتتنا

اقتتلنا

انهزمنا

انتصرنا

وحاربنا كل طواحين الهواء

في كل الأنحاء وسالت الدماء

ويبقى السؤال معلقا بين الأرض والسماء

كذبيحة نجسة..

لما كانت كلها عورات

لماذا إذن خلقتها؟!

الصورة الرابعة

شارع العُمَرية

النطق الشائع كان بكسر العين وفتح الميم، لكن صحيحه كان بضم العين وفتح الميم أيضا، إذ إن التسمية كانت منسوبة لإحدى الطرق الصوفية الوافدة من بلاد المغرب العربي كمعظمها في مصر، والتي كان يسكن شيخها في الشارع وهو الشيخ سيد، وكمعظم الشوارع في مدن الصعيد الأدنى يمتد الشارع من الغرب إلى الشرق، وهو لا يتعدى الخمسين بيتا نصفهم على جانبه الشمالي ومثلهم في المقابل، لكن أحيانا كان يطلق على الشارع اسم شارع الورشة، لوجود ورشة خراطة في مواجهة اتجاهه الشرقي، أما واجهته الغربية فكان يقابلها المدرسة الأميرية أو مدرسة فاروق، وكان الشارع هو الثاني ضمن أربعة شوارع متوازية تنتهي عند طريق قديم لقطارات نقل القصب يسمى السكة الإضافية.

كان الشيخ سيد رجل سبعيني تقريبا، ولا زلت أذكر مشهد انطلاق موكب احتفال الطريقة العمرية بالمولد النبوي، حيث يرتدي الشيخ سيد وشاحًا أخضر، ويحيط به مريدوه وحاملو البيارق والأعلام الملونة –وأظنني رأيته ذات مرة يعتلي حصان– وينشد الجميع الأذكار الموزونة على إيقاع الطبول والمزمار، بما فيهم أطفال الشارع الذين يتزيلون الموكب، بدءًا من لحظة انطلاقه من أمام بيت الشيخ سيد، مرورا بشوارع المدينة الرئيسية وحتى عودته إلى نفس المكان، ولم يترسب في ذهني أنا الصغير وقتها أي

حساسية من أن أطرب وأردد (بسم الله الله أكبر ذو الجلال والإكرام...)، وبقية الأهازيج الدينية مع الجموع وبقية أطفال الشارع.

مواكب أخرى كانت تمر بشارعنا؛ أحدهم كان يوم الأربعاء حيث تمر الذبائح المزمع بيع لحومها يوم الخميس: ثيران، بقر، فحول جاموس، مزينة بأكاليل الورود ليعرف الناس صاحب محل بيعها وينادَى عليها: (من ده بكرة بعشرة قروش) وهو سعر رطل اللحم أيامها، حيث لم يكن تم بعد تعيين نظام الوزن الحديث.

موكب آخر كان الأكثر أهمية بالنسبة لنا نحن الصغار وكان يمر عصر الجمعة؛ حيث يمر عمال سينما الجمهورية التي يملكها الحاج عبد الناصر في شارع بورسعيد، حاملين الأفيش الضخم لفيلم الأسبوع الذي يبدأ عرضه يوم السبت، وأحيانا فيلمين تصاحبهم فرقة من آلات النفخ الشعبية، مع عرض بسيط للعبة من ألعاب السيرك في عرض مبهج.

كان شارع العمرية –ونذكركم أننا نتحدث في أواخر خمسينيات القرن الماضي وبواكير الستينيات– نصفه تقريبا أو يزيد قليلا من الأقباط، وكان معظم سكانه ميسوري الأحوال عدا بعض الساكنين بالإيجار، ولم يكن البناء المسلح منتشرا؛ فمعظم البيوت كان من طابقين والسقوف عالية من الخشب والحوائط، إما من الحجر الجيري أو من الطوب اللبن، والشارع الذي لا يزيد عرضه عن خمسة أمتار تقريبا بأرضيته الترابية كان يكنس كل يوم صباحا ويرش بالمياه بعد الظهر، وتضاء أعمدة الإنارة قبيل الغروب، وفي أمسيات الصيف تحلو جلسات النساء للسمر أمام البيوت، بينما يلعب صغارهن على مقربة.

وقد ولدت في هذا الشارع؛ حيث كنا نملك بيتا كبيرا من طابقين باعه أبي في منتصف الخمسينيات لظروف يطول شرحها، لكن صلتي بالشارع لم تنقطع؛ حيث كنت دائم التردد على أسرة أصغر عماتي التي كانت تسكن الشارع، وكانت الأسماء في الشارع تتراوح بين أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وبين جرجس وولسن وإسرائيل وتادرس، والأخير كان أكبر تاجر خمور في المدينة.

وكانت "الست أم عمر"، وهي زوجة الحاج كامل الأخ الأصغر للشيخ سيد، بمثابة الأخت الكبرى لمعظم نساء الشارع، ومنهن عمتي التي كانت دائمة المديح في "أم عمر" لطيبتها وكرمها. ولم أرَ أبدا شجارا في هذا الشارع، ولم أرَ شبهة تعصب أو تمييز أو فرز أو عنصرية. كان خليطًا ممتزجًا متعايشًا قابلًا بالاختلاف، كأسلوب حياة حتمي لا مفر منه وضرورة حياتية لا غنى عنها. وأتذكر أن الفندق أو (اللوكاندة) الوحيدة في بلدتنا كانت ملكا لليونانية كاترينا وشقيقتها.

هذا ما جادت به الذاكرة عن صورة مر على آخر تفاصيلها ستون عاما أو يزيد لشارعنا الجميل، وأظنها صورة من بلدتنا، وأظنها صورة من الوطن كله في هذه الحقبة الجميلة التي نعيش على بقاياها حتى اليوم.

هوامش

(١)

الأغصان لم تعد تطرح ظلالًا

الأغصان لم تعد تطرح ثمرًا

الروضة خاصمها المطر

الروضة هجرها الأحبة

هجرها الخلان

هجرها العصفور والكروان

لم يعد في سمائها نجوم

نجوم سقطت

ونجوم احتجبت

ونجوم احترقت

ونجوم طاردتها أسراب البوم

لم نعد نسمع دعاء الكروان

الكروان لما دعا إلى الحياة

طاردته أسراب الغربان

لم نعد نسمع زقزقة ولا شقشقة ولا هديل

لا نغمات ولا ألحان

فقط النعيق والفحيح والعواء

لم نعد نرى غسقًا ولا شفقًا

فقط القتال والدماء

حتى الأزاهير تحورت

لم يعد لها رائحة

ولم يعد لها ألوان

لم نعد نرى الأحمر ولا القرمزي

حرموا الألوان

حرموا المعاطف والسراويل

وازدهرت سوق الأكفان

لم نعد نرى الأرانب البرية

لم نعد نرى حملانا ولا غزلان

الروضة استوطنتها وحوش الجيف

ولاعقات الدماء

استوطنتها الخفافيش والهوام

سيَّجوا حولها

عزلوها عن الدنيا
وتصحرت أطرافها
زحفت عليها الأفاعي
زحفت عليها الرمال كثبانًا كثبانًا
وطمرت الجداول
والرياح الساخنة التي تهب من الشرق
جففت ما تبقى من الأغصان
وانهارت البنايات الجميلة
ودق الناس الأوتاد ونصبوا الخيام
واندفعوا داخلها مهللين مهرولين
قطعانًا قطعانًا

(٢)

هل تذكرني؟
يوما فرحت لأجلك
يوما حاربت لأجلك
يوما حزنت لأجلك
يوما نزفت لأجلك

ومشيت كثيرا على ضفاف نهرك

في الربيع ..كنت أتأمل حقول القمح والزهور

وفي الصيف ..كنت أرى كيف كان النهر يفور

وفي الشتاء..كنت أمشي مختالا إلى المدرسة

أشق السحابات الندية في البكور

أحمل كراستي وقلمي

والمعلم كان يلقنني

كل صباح

كيف أحب الناس؟

وكيف أحبك؟

هل تذكرني؟

أنا من كنت كل صباح أتقدم الطابور

وأقف تحت السارية

رافعا يدي اليمنى إلى فوق أنفي

وأهتف

والجميع كان يردد خلفي:

المجد لك .. الموت لعدوك

هل تذكرني؟

نعم تبدلت ملامحنا

فقد جاء الخريف

وهناك غبار كثيف

وهناك ضباب كثيف

والرؤى غامت

لكني متأكد أنك تذكرني

فأنا ابنك

أنا الفتى الحائر

أنا الفتى الثائر

أنا الفتى المتأنق

أنا من تعلمت في مدرستك

تعلمت كيف أحب الناس

وكيف أحبك

يا من ذقت من سنابلك

ورحيق زهرك

ولا زلت أذكر

كم كنت تحبني

وكم كنت أحبك

هل تذكرني؟

يا من كنت صباي وأحلامي

وكنت صباك وحلمك

الصورة الخامسة

أعمال سفلية

منحه مظهره المهندم وحذاؤه اللامع ووجهه الأبيض المشرب بالحمرة وشعره الأصفر وعيناه الخضراوتان لقب "خواجة"، لكن لقب "عم نجيب" كان هو الشائع، عم نجيب كان رجل خمسيني قصير القامة ذو بنية قوية، وفي دكانه أسفل بيته كنا نذهب لدرس إضافي في العربي والحساب عصر كل يوم في الإجازة الصيفية، عدا الأحد فهو يوم الراحة الأسبوعية للخواجة نجيب.

كانوا قلائل في قريتنا الصغيرة الذين يعرفون مبادئ القراءة والكتابة، لكن إجادة خطها ونطقها وقواعدها كانت مقصورة على عم نجيب، الذي كان يجيد أيضا الحساب واللغة القبطية وتقويمها. وكثيرا ما كان المزارعون العائدون ببهائمهم ودوابهم من الحقول قبيل الغروب يسألونه: "النهارده كام قبطي يا عم نجيب؟" ويجيب عم نجيب بدقة وسرعة، وأحيانا كان يضيف متبرعا التاريخ الهجري والميلادي الموافق.

بالنسبة لي، على الأقل، كانت ساعة الدرس في دكان عم نجيب ممتعة، فعلاوة على أن الرجل كان يبهرنا نحن الصغار بعلمه ومعرفته وطريقته المحببة في الدرس، فقد كان لديه مذياع وكتب كثيرة قديمة بعضها كان بحروف غير عربية، وكنت أسحب بعضها من فوق الرفوف وأقلب صفحاتها خلسة في عدم وجوده، مع نوادر وقفشات باسمة مع الجميع،

سبب آخر مستتر كان يضاعف سعادتي بساعة الدرس في دكان عم نجيب؛ فقد كانت ابنته الصغرى في نفس صفي الدراسي في مدرسة القرية، وكان الصف الخامس الابتدائي فقد كنت في الحادية عشر، ولم أكن أعرف سببا لشعور الفرح الذي كان يغمرني عندما أراها وهي تحضر لأبيها أحيانا كوبًا من الشاي، وتخصني بنظرة مع شبه ابتسامة دون باقي الرفاق.

ولا أتذكر كيف كان عم نجيب يتقاضى أجره عن درسي، إلا أننا كنا نرسل إليه في مواسم الحصاد مقادير من القمح أو الذرة أو الفول أو غيره، كما كان بعض جيراننا أيضا يفعلون رغم أنه لم يكن لديهم أطفال يتعاطون دروسا عند عم نجيب، فخدمات عم نجيب كانت تطال الجميع، فهو ينهي الإجراءات والتعاملات مع الجهات الإدارية في البندر؛ إجراءات الحيازة الزراعية وصرف الأسمدة، والتعامل مع المحامين في القضايا، وكتابة الشكاوى لأي جهة لمن يريد، وإرسال التلغرافات العاجلة للمسئولين في القضايا الملحة، لذلك وغيره كان لعم نجيب مكانة مميزة عند معظم أهل القرية فقراء وأغنياء.

كان دكان عم نجيب في الأصل محل مرخص لبيع الخمور منذ زمن بعيد، لكن عم نجيب تنازل عن الترخيص لأحد أقاربه في قرية مجاورة، وأصبح الدكان الخالي من أي بضائع أقرب إلى مكتبة أو بؤرة معرفة يتجمع أمامها محبي ومريدي عم نجيب، وفي حديثه مع الجالسين أمام دكانه ساعة العصر –حيث كنت أتلكأ في العودة بعد الدرس– كان يبدو عالمًا ببواطن كل الأمور؛ سياسة وزراعة وصحة وتعليم وري، وكان الجميع ينصتون مشدوهين. كدت أنسى أن عم نجيب كان يجبر كسور العظام البسيطة،

ولديه دائما بعض الأدوية لنزلات البرد والإسهال والحمى وما شابه، وكنت أراه يخرجها من أحد أدراج دكانه، ويعطيها دون مقابل بعد الاستفسار الجيد والتدقيق في الشكوى وأعراضها.

كان عم نجيب يغادر القرية صباحا كل يوم تقريبا، راكبا حماره مرتديا جاكت على جلبابه وطربوش أحمر تتدلى من تحته أطراف منديل واقٍ من العرق، قابضا تحت إبطه الأيسر على حقيبة أوراقه، وبذات اليد يمسك شمسية بيضاء، وباليد اليمنى يمسك لجام حماره، ويعود ظهرا فيجد أصحاب المصالح في الانتظار، يفتح دكانه ويفتح حقيبته ويبدأ في توزيع الأوراق على كل من له مصلحة، ثم يلقي على الباقين ما استجد من أمور على مصالحهم من تأجيل أو استكمال أوراق أو غيره.

ليومين متتاليين نذهب إلى دكان عم نجيب الذي كان أسفل بيته ونجده مغلقا وننتظر، ثم تخرج إحدى بناته من شرفة فوق الدكان مباشرة وتلقي إلينا بالخبر الحزين: "ما فيش درس النهارده"، تكرر المشهد ليومين أو ثلاث. وفي البداية أشيع أن عم نجيب مريض، ولسبب ما لم أقتنع بمرض عم نجيب ولم أفقد الأمل في استئناف الدرس، ورغم التنبيه المتكرر بعدم الذهاب، إلا إنني كنت أذهب في الموعد لأتطلع من بعيد آملا أن أجد دكان عم نجيب مفتوحا، لكن ذلك بدا وكأنه أمل مفقود.

مر شهر تقريبا والحال على ما هو عليه، دكان (الخواجة) مغلق، والملاحظ في هذه الأحداث أن لقب عم نجيب قد تقلص من على ألسنة كثيرة وأصبح لقب (الخواجة) هو السائد، والرجل لم يعد يظهر بنشاطه

المعتاد، والإشاعات بدأت في التطاير هنا وهناك، وانتشرت الروايات المختلفة والمختلقة؛ فمن قال إن عم نجيب كان على خلاف مع شيخ البلد بسبب قطعة أرض، مما دفعه لاتهامه بالقيام بأعمال سحر أو ما يطلقون عليه (أعمال سفلية)، وقد استشهد البعض بكم الكتب الغريبة على أرفف دكان عم نجيب، ومن ثم قام العمدة بوقف نشاط عم نجيب وخصوصًا دروس العصر وأمره بإغلاق دكانه، لكن الأمر لم يقف عند هذا، فقد بدأت عملية تحريض على الرجل قام بها بعض الشباب متهمين إياه بتهم كثيرة، بعضها فهمته ساعتها وبعضها استغرق تفسيره نصف قرن والباقي لم أفهمه حتى اليوم، لكن تهمة الأعمال السفلية ظلت دائما على رأس قائمة التهم المزعومة، وكنا في أواسط السبعينيات.

وتطورت الأحداث بسرعة، لكن يبدو أن الرجل بفطنته استوعب ما يحدث حوله، كما أبلغه بعض محبيه بخطورة الموقف وأن عليه المغادرة مع أسرته في أسرع وقت ممكن حفاظا على حياتهم، ولم يكذب الرجل خبرًا وغادر مع أسرته تحت جنح الظلام، وفي الجمعة التالية هجموا على بيت (الخواجة)، وبدأوا بالدكان أحرقوه مرددين الهتافات، ولم يتركوه إلا بعد أن أصبح ركاما حتى يتأكدوا من محو كل (الأعمال السفلية) التي كان يصنعها عم نجيب في دكانه، لكن أعمال أخرى كان يصنعها عم نجيب لم يستطيعوا محوها ولا زالت صامدة حتى اليوم، وظل ركام بيت (الخواجة) على حاله سنين طويلة، فلم يستطع أحد الاقتراب منه خشية (أعمال سفلية) قد تكون لا زالت مدفونة في ركام دكان عم نجيب.

هوامش

(١)

يا سيدي

الناس يقتلون الناس باسمك

وشعارات القتل باسمك

وهتافات القتل باسمك

وأدوات القتل باسمك

يا سيدي

خلقك يقتلون خلقك

والأرض تبتلع الدماء

والسماء تمطر دماء

صباحًا ومساء

ونزرع باسمك

ونحصد باسمك

قمحا أحمر

تمرا أحمر

وعنبا أحمر

يا سيدي

الناس.. يحتسون الدماء

في الصباح وفي العشاء

ويقرعون الكؤوس بلا حياء

ينتشون

يتمايلون

يرفعون الرايات

ويهتفون باسمك

يا سيدي

ارفع غضبك عنا

ارفع غطاءك عنهم

(٢)

اخرج من السرداب

اخرج من الدهليز

اخرج من البرزخ

اخرج لتنقذنا

اخرج لتؤمنا على الملأ

في ساحة المعبد الكبير

سئمنا الصلاة مختبئين

اخرج لترى الظلم بعينك

فقد جاء الحيثيون

وجاء البربر

وجاء الهكسوس

وعاد العبرانيون

هدموا المعبد

قتلوا الهيباشيون

حرقوا المكتبة

أغاروا على طيبة

والنهر حزين

والأسماك هربت

والضروع جفت

والأرض لم تعد تنبت إلا حسكا

ونفد مخزون الحنطة والنبيذ

ونبشوا قبور الملوك

وعبثوا برفات الملكات

نهبوا أواني المذبح

وهدموا مائدة القرابين

ونادوا بآلهة غريبة

اخرج وكفانا عبودية

كفاك هذه الغيبة الطويلة

وكفانا من هذا المشهد المهين

اخرج من هذا السرداب اللعين

كفاك اختباء

كفانا انتظارا

اخرج لتحررنا

تحررنا من الغلاة

وتحررنا من الولاة

ومن الآمرين والنهاة

والمتفيقهين والنحاة

والرواة والرعاة

ووكلاء الإله

اصعد من تحت الهرم

أو اهبط على السحاب من السماء

أو تعال من الجنوب

أو من على جبال سيناء

تعال من أي اتجاه

فنحن في انتظارك

نحن في انتظارك يا ظل الإله

الصورة السادسة

ظلال حنونة

في أوج هجيرها القائظ نلت قسطًا من ظلال حنونة، وفي زمهريرها القارس نلت بعضا من أحضان دافئة، ومن منحني هذه وتلك شخوص مروا بحياتي كنسمة صيف، مروا مرورًا كريمًا أعانوني على اجتياز لحظات عصيبة وأزمات طاحنة كادت تعصف بحياتي ثم مضوا، مضوا في هدوء تاركين أثرا جميلا، وكأنه كان لكل منهم دورا مرسوما مسبقا أداه بكل أمانة ومضى إلى حال سبيله، وكثيرا منهم لم أعد أعرف عنهم شيئا.

والقصة بدأت حين كنت في السادسة عشرة، أي مر عليها خمسون عاما أو يزيد، قلبي الغض اقتحمته باكورة قصص المراهقة الحتمية، ويومها انبثقت التفاصيل التي كنت أعتقد أنها محيت مع الزمن، كنا قد تزاملنا صغارا في المدرسة الابتدائية؛ هي تجلس أمامي حيث يجلس البنات عادة في الصفوف الأولى، حافظت على موقعي المفضل خلفها كلما انتقلنا إلى الصف الأعلى وأظنها كانت لا ترغب في أي تغيير، كنا نتبادل بعض الأدوات وبعض النظرات التي لم أكن أظن أن لها معنى في حينه، ولم أكن أدري أنها تخزن على الذاكرة لتسجل بالحفر العميق مشهدا ثلاثي الأبعاد على جدار الجمجمة.

افترقنا في المدرسة الإعدادية، لكن كان يجمعنا قطار الصباح الباكر؛ نتصنع صدفة التجاور حينا على مقعد وأحيانا واقفين، وفي لحظات اقترابنا

في الزحام الشديد كنت ألحظ التغير اليومي المتسارع في تفاصيل جسدها، بينما كنت أنا أستجدي أن تنمو بعض شعيرات هزيلة برزت خلسة أسفل أنفي.

انتقلنا إلى المدرسة الثانوية وبدأت المشاعر تتبلور شيئا فشيئا، وبات جليا أنني أصبحت متيما بوجهها وعينيها وقوامها وصوتها وابتسامتها، وتمحور فكري واهتمامي حول هذه الحالة المدهشة التي أصبحت عليها؛ حالة من السياحة في عوالم من الرومانسية أنستني كل ما حولي عدا أن أهتم بإفراط بمظهري وأناقتي، ورغم مرور هذه العقود الخمسة لا زالت التفاصيل تقف مستوية كلما استدعيت منها مشهدا، فيتجسد كله رباعي الأبعاد؛ ما كنت أرى وما كنت أسمع وما كنت أشم وما كنت أتذوق.

وفي غمرة هذا الفرح الطاغي، وبينما أنا غارق في نشوة الولوج الى مرحلة عنفوان الفتوة حدث ما لم يكن يخطر لي على بال؛ أيقظوني في الفجر لأحضر طبيبًا لأن أبي مريض، وكنا في حوالي الخامسة صباحا، ولم تحن السابعة إلا وقد رحل أبي.

أذكر أن هول الصدمة أفقدني اتزاني وسقطت على الأرض، حملني بعضهم، لكني لم أغب عن الوعي فقط أحسست بشعور السقوط من ارتفاع شاهق وارتطمت بالأرض، تبدلت حالة الرومانسية المفرحة إلى شعور الحزن الطاغي، من شعور أبواب الأمل المفتوحة عن آخرها إلى شعور المستقبل الغائم المجهول، من شعور الفتوة والشباب إلى شعور المرارة واليأس، فقد رحل أبي في ريعان شبابه. وبعد أن كنت الوحيد المدلل،

أصبحت وحيدا أعزل في مواجهة مجهول غائم، وانقلبت كل الأمور رأسا على عقب.

بالطبع علمت هي بما جرى، وفي أول لقاء فوجئت بها ترتدي الأسود وغمرتني بنظرة مواساة دامعة عميقة، أحسست لحظتها أني لست وحدي، وسرى في بدني شعور بالمقاومة، ونهضت أتلفت حولي للبحث عن مكان لي في الحياة. وفي غمرة الصراع من أجل البقاء ضاعت أشياء كثيرة كانت هي أولها، لكن ذكراها بقيت رصيدًا مدفونًا من أيام الفرح؛ أيام السباحة في بحر الأحلام الوردية، التي أستعيدها بين الفينة والفينة لتطفئ لهيب الواقع. هذه لمحة من ظل سحابة حنون عبرت وتمهلت فوق رأسي رفقا بي في يوم هجير قائظ.

هامش

(١)

كان ذاك منذ خمسين عام

في تلك الأيام الجميلة كان ثمة فتى

الفتى كان وكان وكان وكان

كان له قلبا كبيرا

وكان له وطنا كبيرا

وكان له أملا كبيرا

وكان يعشق الحياة

الفتى كان يحب جميلة لكن ليس كما يحب الرجال النساء في هذه الأيام

الفتى كان ينتظر الجميلة كل صباح على ناصية الميدان

الجميلة كان لها قلبا جميلا وروحا جميلة ووجها صبوح

وكان لها عينان سوداوتان واسعتان عميقتان

تعرفونها.. جميلة من جميلات ذاك الزمان الجميل

آه كم كن جميلات صبايا ذاك الزمان

تعرفونها.. الجميلة التي لما كانت تعبر الميدان

يصطف الجميع واقفين

وتتوقف كل الأعمال

تعرفونها.. الجميلة التي لما كانت تعبر الميدان

تفوح رائحة عطر رقيق وتنتشر البهجة في كل اتجاه

وتغمر الابتسامات كل الشفاه

تعرفونها.. الجميلة التي لما كانت تعبر الميدان

العيون تفرح والجراح تندمل وتتراقص القلوب

تعرفونها.. الجميلة التي لما كانت تعبر الميدان

النفوس تنسى الأسى والأرواح تترنم

ويتضاءل وزن الأجسام
وذات صباح حزين حدثت وقائع غريبة
وقائع لم تكن أبدا في الحسبان
تباطأت الشمس في الشروق
وتجمعت سحب داكنة
والطيور سكنت مترقبة
والأرواح صمتت
ولم يأتِ الفتى كعادته كل صباح
ولم تأتِ الجميلة كعادتها لتعبر الميدان
والعيون دمعت
وتوقفت كل الأعمال
وحزن الجميع
وضاعت إلى الأبد معالم ذاك الميدان

(٢)

بعد غياب طويل طويل
سأعود إلى مدينتنا
سأجرب أن أوقف آلة الزمن اللعينة

تلك التي نهشت مني كل هذه السنين

سأقف على ناصية الشارع

بينما يتصاعد اللحن القديم

من المقهى المجاور

ثم تتهادين أنت متباطئة

نتبادل نظرتين أو ثلاث هي عمر المسافة

بدا كل شيء مرتباً كما تمنيته

عدا أنك لم تأتِ أو أنني لم أركِ

لا شك أنك جئت وأنا لم أركِ

(٣)

هذا الوجه أعرفه

هذا الوجه منقوش على قلبي

هذا الوجه يملؤني بهجة

هذا الوجه أقيس عليه الجمال

هذا الوجه أتذوق به الألحان

هذا الوجه رحل عني منذ أمد بعيد بعيد

ومعه آخر يوم عيد

كلما تذكرته ينفجر البركان

رائحة الورود في الربيع واللحن القديم

وطعم فاكهة منقرضة وصورة زعيم

والنيل على أبوابنا ومدرستنا القديمة

وأول خطاب وأول سلام وأول كلام

وحبيبنا القمر والأفراح في قريتنا

وفستانك الأحمر وبواكير الزروع

ومتعة انتظارك في شتاء طوبة

وشجرة التين والدموع والرحيل (والحنين والأنين)

وناموس الحياة وهجوم السنين

الصورة السابعة

الغرب

في هذه البقعة من الصعيد الأدنى كانت بؤونة وأبيب هي شهور الدميرة الصعبة؛ حيث يصعد النهر ويغمر كل الشريط الضامر المحصور بين النهر والجبل، وتنعدم – أو تكاد– الحاجة إلى أي نوع من العمالة؛ فلا زرع ولا ضرع ولا حصاد وتخيم على الجميع سحابة بؤس قاتمة، وبحثا عن عمل يرحل كل من يستطيع شمالا أو جنوبا، والبعض يتوغل شرقا في المدقات الجبلية الوعرة على ظهور دوابهم مع بعض المؤن ومعدات التنقيب البسيطة، بحثا عن عروق الملح المترسبة في التكوينات الصخرية، ويعودون بعد يومين أو ثلاث بقليل من فصوص الملح الجبلي لبيعه في أسواق القرى المجاورة بقروش زهيدة، وأحيانا لا يعودون، والروايات كثيرة عمن ابتلعهم الجبل وأكلتهم الذئاب.

تحت النخلة اليتيمة التي يملكها على الجسر ، قتلًا للوقت جلس صاحبنا يلعب الدومينو مع جاره، أحيانا تسلية وأحيانا برهانات مؤجلة لحين ميسرة، ولحظه القليل تراكمت ديون الرهانات عليه لجاره الذي عرض أن يقايض تلك الديون بالنخلة، لكنه رفض بشدة؛ فقد كانت الوحيدة التي تبقت من كرم ورثه عن أبيه ظل يبيع منه كل دميرة، حتى لم يتبقَ منه سوى تلك الوحيدة التي يستطيع الجلوس تحتها يلعب الدومينو ولا يسأله أحد، ناهيك عن ثمارها الصفراء الرطبة التي يبيعها في مسرى، ويدخل جيبه

أول جنيه في نهاية سارة لأيام الدميرة الصعبة، جاره الأعزب داعبه بالتلميح بإمكان اعتبار النخلة مهرا يتزوج به أخته، تظاهر برفض المداعبة، لكن جاره كررها بشيء من الجدية مما جعل الفكرة تلمع في ذهنه من شدة وجاهتها، فهو سيصطاد عصفورين بضربة واحدة سيحتفظ بالنخلة ويزوج أخته.

كان التباين الحاد في الأحوال بين ضفتي النهر يصعب وصفه؛ فكان لفظ (الشرق) عند سكان (الغرب) مرادف لحالة العدم، حيث وادي ظل الموت الجبانات والمدافن والفقر المدقع، عكس الحال في (الغرب)، حيث المدينة والكهرباء والصخب والشوارع والمقاهي الساهرة ودار السينما. والمنطقة لا يوجد بها أي أثر لدولة أو نظام، فلا تواجد لسلطة أو مرفق خدمة أو أي نوع من مظاهر مجتمع منظم، والقرية الصغيرة كانت أقرب إلى نجع بيوتها لا تزيد عن العشرين، وهي تخص أحد الأسر من الأعيان الذين كانوا يملكون معظم أراضي المنطقة، وأقرب مجتمع لها كانت خيام لبعض البدو تحت سفح الجبل، والوسيلة الوحيدة لعبور النهر كانت بعض القوارب الخشبية المتهالكة، ومع فوران النهر تتباعد ضفتاه ويصبح عبوره مخاطرة غير مأمونة.

عادت أخته في إجازة قصيرة ، حيث تعمل لدى إحدى الأسر الثرية في (الغرب)، زف إليها خبر مشروع زواجها من جارهم، لكنه فوجئ بتجهم وجهها؛ فهي تعرف جارهم جيدا فهو لا يجيد سوى لعب القمار، ثم إنها سعيدة بعملها في (الغرب) تأكل وتشرب وتنام تحت سقف، ويغازلها أحد

العاملين في حديقة مخدومها وربما يتزوجها، أعلنت رفضها للفكرة؛ أولا: لأنها لا تحب العيش في (الشرق) تحت سفح هذا الجبل الموحش المملوء بالجبانات، وتزدحم في رأسها ذكريات بؤس أيام الدميرة، ثم إنها تعتقد أنها تستحق مهرا حقيقيا وليس رهانا سوف يعيرها به طيلة العمر بأنه كسبها في مقامرة، رجت أخيها بأن يصرف نظر عن الفكرة وسوف تتحدث إلى مخدومها ليجد له عملا ويستقروا معا في (الغرب)، قلب الفكرة في رأسه، ولِمَ لا وهو لم يعد يملك شيئا وخصوصا بعد أن لم يستطع التملص من تسليم النخلة لجاره لأن الرهان كان بشهود! وأعجبه اقتراحها فهو يتوق إلى العيش في (الغرب).

في الصباح جمعا أغراضهما البسيطة، وفي الطريق ودع النخلة الأخيرة من كرم أبيه وركبا القارب لعبور النهر، وبين الضفتين رآها من بعيد لأول مرة؛ كم هي جميلة ومتناسقة وطويلة لم يرها كذلك من قبل، وغشت قلبه موجة ندم عارمة وود لو يعود. كان القارب في منتصف المسافة بين الضفتين تقريبا، بدأ يتململ وتذكر أن جلسته تحت النخلة لن تعود حتى لو عاد إلى الشرق، فلم يعد يملك النخلة والمجهول الذي ينتظره على الضفة الأخرى غائم مجرد وعود، شعرت أخته باضطرابه أمسكت بيده، لكنه أفلت منها وقفز في النهر، علا صراخ أخته وبقية ركاب القارب، لكن تيار النهر الهادر سحبه إلى الشمال. طفا مرتين أو ثلاث، لم يصرخ ولم يظهر أنه يبدي مقاومة ثم اختفى، ولا أحد يعلم أين رست جثته في الشرق أم في (الغرب)؟

هامش

(١)

أنت .. من أنت؟

حينا أعرفك

وأحيانا لا أعرفك

وكثيرا ما تتوه مني ملامحك

أنت .. من أنت؟

عندما أذكر أفعالك القديمة أمقتك

وعندما أرى آثار الجروح على جسدك النحيل

أشفق عليك

وعندما أرى صورك القديمة البريئة

يرق قلبي لك

وعندما أتصفح أوراقك الكثيرة

أبكي عليك وأعذرك

أنت .. من أنت؟

أوَ تذكر أيام أن راق لنا الزمان؟

أيام الصبا

أيام أن كان لنا أحلام

وكان لنا أحبة

وكان لنا خلّان

وكان لنا أوطان

يومها كنت أعرفك

ولما غدرت بنا الأيام

ورحل الأحبة

ونُفينا إلى الأصقاع الغريبة

وَلَهَت بنا الدنيا

ورحلت الأوطان

واغتربنا واقتسمنا المكان والزمان

وها عدنا

ها عدنا من رحلة الآلام

ها عدنا من رحلة الأوهام

عدنا إلى خط البداية

عرايا كأغصان الخريف

عدنا إلى خط النهاية

فرادى بعد أن تساقط الأحبة في الطريق

عدنا بوجوه متغضنة

عدنا بجلد ضامر

عدنا قابضين الريح

قابضين الجمر والأحزان

فهلمَّ نتصالح

فيُخيل إليَّ أني أصبحت أعرفك الآن

أجبني يا أنت

قبل أن ينتهي الوقت

فأنا آمل أن نتصالح معا

قبل أن نرحل أنا وأنت

فأنا أود أن نرحل في سلام

أجبني يا أنت بسرعة

فالوقت قد حان

هل أنت أنا؟ وهل أنا أنت؟

أريد إجابة قاطعة..هنا والآن

الصورة الثامنة

نصيب

بعد وفاة أمي ومرض جدتي، انتقلنا من المدينة إلى بيت متواضع في الإقطاعية الصغيرة التي كان أبي يدير شئونها حتى يكون قريبا منا، فجدتي كانت مريضة وأبي لا زال يرفض الزواج ثانية، وبالطبع لم تكن هناك مدرسة قريبة في كل الجوار، وحتى استقرت أوضاعنا الجديدة كان قد ضاع مني عام دراسي كامل، وأظنه الصف الخامس لأني كنت قد تجاوزت العاشرة، زارتنا عمتي وزوجها، وعرضت استضافتي والالتحاق بمدرسة قريتهم حتى لا يضيع مني عام دراسي جديد، وافق أبي وبعلاقات زوج عمتي بناظر المدرسة، بالإضافة لاختبار في القراءة والكتابة والحساب أعجب فيه الناظر بمستواي ، فتقرر إلحاقي بالصف السادس مباشرة وقد كان.

كنت فرحا بعودتي إلى المدرسة، وفرحا أكثر ببيئة جديدة هي بيت عائلة ريفي كبير متسع من طابقين، وجو أسري دافئ افتقدته كثيرا؛ فزوج عمتي كان له ثلاث أخوة ذكور كلهم متزوجون في بيت العائلة والأطفال كثر، وكنت أحبهم وكانوا يحبونني، فقد كنت سابقا زائر الصيف المستديم.

كالعادة قبل بدء العام الدراسي كانت تجري المراسم السنوية التي تنظم اصطحاب الكبار للصغار إلى المدرسة، فكان المعتاد أن الكبار وهم من في الصف الخامس والسادس هم المكلفون باصطحاب الصغار الملتحقين الجدد والأكبر بعام، أما من هم في الصف الثالث والرابع فهم

مكلفون بأنفسهم فقط، وهذا العام استجد وافد جديد في الصف السادس وهو أنا، كما استجد أيضا وافد أو بالأحرى وافدة جديدة ستلتحق بالصف الأول، واستقر الرأي على أنني سأصحبها ذهابا وعودة. وتم إلقاء التنبيهات على مسامعي مصحوبة بتحذيرات شديدة من أي مخالفة وإلا ستكون العواقب وخيمة، وبالطبع كان يتراقص أمام عيني شبح حرماني من المدرسة، أو بالأحرى حرماني من هذا الجو العائلي المبهج الذي حرمت منه وخصوصا بعد وفاة أمي، حذرني كل الأولاد من اصطحابها، لكن أحدا منهم لم يفصح عن سبب واحد يبرر هذه التخوفات التي بالغوا فيها، حتى أنني سألت عمتي، لكنها لم تجب سوى بضحكة قصيرة مقتضبة أعقبتها بكلمة نصيبك.

في اليوم الدراسي الأول انتظرتها أمام مدخل مسكنهم المستقل في الطابق العلوي، فتح الباب خرجت أنيقة مهندمة بحذاء لامع لكن شبه باكية، مدت يدها بحركة آلية لكي أمسك بها، لكنها والظاهر أنها تعليمات الأم، فقد تفحصت يدي بنظرة سريعة وأظن أنها للتأكد من نظافتها، أمسكت بيدها وإذ هي باردة، مشينا بينما لا زالت آثار الدموع في عينيها، وكان الموقف عليَّ جديدا واصطحبتها مرتبكا، مشينا في دروب القرية الضيقة صامتين، تزاحمنا الرحلة الصباحية لقطعان البهائم والدواب الذاهبة إلى الحقول، لم تقل ولم أقل شيئا طوال المسافة، وكانت لا تقل عن كيلومتر؛ نصفها داخل القرية والنصف الثاني طريق متسع ممهد يوازي ترعة بين الحقول. دخلنا باب المدرسة وكان بداية طابور الصباح، وساعدني أولاد

عمتي في البحث عن صفها الدراسي، وتركتها بين أقرانها تشبثت بيدي للحظة، لكنني تخلصت منها مسرعا نحو مكاني في الطابور.

في عطلات الصيف السابقة التي كنت فيها مجرد ضيف، كان ظهورها للعب معنا في باحة البيت نادرا، لكن كنا نسمع كثيرا أنها مريضة، وكنت أسمع جدتها لأبيها تدعو لشفائها، وكنت ألحظ عينيها مغرورقتين بالدموع.

في رحلة العودة انتظرتها على باب المدرسة جاءت متباطئة يبدو الإرهاق على وجهها، حملت عنها حقيبة كتبها القماش وحاولت المشي بها مسرعا للعودة لكن لاحظت عدم قدرتها على مجاراتي، فاضطررت إلى إبطاء خطواتي قدر ما استطعت، ثم اضطررت لحملها في ربع المسافة الأخير، ساعدني بنياني وساعدني جسدها النحيل، وبالطبع وصلنا متأخرين ووجدنا الجميع في انتظارنا قلقين، اختطفتها أمها مني بسرعة قبلتها وضمتها لحضنها بقوة، وأسرعت بها إلى مسكنهم.

كان في الموقف ما يحتاج إلى تفسير، ولم أجد من يجيبني، لكنني اكتشفت أشياءً من حوارات النساء الجانبية المبهمة المشوبة بالأسى، ومن عبارات بعض نساء الأقارب والجيران ونحن في طريق المدرسة، تكشف لي أنها كان يجب أن تذهب للمدرسة العام الماضي، لكن مرضها الشديد وعدم وجود مرافق مناسب لحالتها أضاع عليها العام الأول، لكن إلحاحها واشتياقها للذهاب للمدرسة ووجود رفيق مناسب هذا العام عجل بتحقيق رغبتها، وفهمت لماذا كان أبناء عمتي يحذرونني من اصطحابها، وترسخ في ذهني أن هذا هو المقابل المطلوب مني حتى أستمر في المدرسة، وأستمتع بهذا الجو الأسري الدافئ.

وواظبت على القيام بالمهمة الموكولة إليَّ بكل همة ونلت استحسان الجميع، وتوطدت العلاقة بيننا، ومع الوقت لم تعد المهمة ثقيلة بل أصبحت أستمتع بصحبتها، تمشي بجانبي أو أحملها وأطمئن عليها بين الحصص، ثم اكتشفت أن لها وجها ملائكيا مميزا؛ عيون زرقاء وشعر أصفر وبشرة بيضاء وصوت عذب خفيض هامس، ثم انصرم العام، الدراسي بسرعة وتعافت هي من مرضها وصارت تلعب معنا في باحة البيت، بعد ستة عقود ها هي بين أحفادها تحكي لهم كيف كان جدهم يحملها إلى المدرسة؟

هامش

في أيام النسيء رأيتك لأول مرة..

ثم تذكرت أننا كنا معاً من توت

فكيف لم أرك؟

كنا برعمين متجاورين على غصن واحد

كنا نرضع الطهر والبراءة وكانت لنا عيون

فكيف لم أرك؟

كانت وجنتاك لون ورود برمهات

وعيناك كقرص عابد الشمس

ويحوط برأسك هالة قدسية

فكيف لم أرك؟

كنا نلهو ونتقافز ونتلامس

كعصافير الحدائق الملكية

كنا نرنم لحن الحب الآتي..

لحن الأيام البكر

فكيف لم أرك؟

ليتنا لم نكبر ولم تتفتح مياسمنا

ليتنا أجلنا هذا اللقاء إلى دهر آت

(٢)

العزف على آلة الذكريات

من الوتر الأول خرجت آهة حزن

من الوتر الثاني خرجت زفرة ألم

من الوتر الثالث انبثق الشجن

من الوتر الرابع خرجت ذكرى

يوم مات الحلم

من الوتر الخامس خرجت ذكرى

ليلة أكلت من شجرة الندم

من الوتر السادس خرجت ذكرى

يوم دفعت الثمن

من الوتر السابع

خرجت نغمة لا أعرفها

ربما لحنا قديما تجاوزه الزمن

بحثت عن وتر السرور

فلم أجده

سألت: أين؟

أجابوا: السلم تغير يا صاح منذ تغير التقويم

ومات الزعيم ولم يعد النهر يفيض

وبدء عصر المحن

الصورة التاسعة

مغامرة

إنها نفس الحالة التي مر بها منذ نصف قرن عندما كان مراهقا في أواخر العقد الثاني، أيامها لم يكن يستطيع وصفها؛ فلم تكن له حصيلة من المفردات التي تعبر عنها ولا حصيلة من المشاعر التي تصفها، الآن يستطيع فقد أصبح شاعرا وقاصا، لكن واجهته مشكلة، فالطعم مختلف تمام الاختلاف؛ الأولى كانت مشاعر بكر عفوية يشوبها احمرار الوجنات والخجل والتردد، أما الثانية فهو يعتقد أنه متماسك يتصرف بحكمة صياد محترف يعرف كيف يلقي الشبكة، الأولى كانت في أيام أقصى وسيلة للتواصل فيها كانت ورقة بها بعض الكلمات المبعثرة مدسوسة بين صفحات كتاب بين الحصص، أما الثانية فالمجال لا نهائي في الليل والنهار، الأولى كانت المواجهة بين شاب وشابة أو صبي وصبية بلا فارق في سن ولا خبرة، أما الثانية فالفارق هائل أربعة عقود فهو في منتصف الستينات وهي في منتصف العشرينات، فارق آخر رئيس بين الحالتين؛ في الأولى كانت مشاعره حرة طليقة، أما الثانية فهو زوج وأب وجد، أي رب عائلة مستقرة مشهود له بالالتزام والحكمة، وكثيرا ما يستشار في مشاكل أسرية تكلل مجهوداته أحيانا بالنجاح.

من هنا بدا الصراع محتدما؛ فكيف لهذا الرجل الوقور –وكان موظفا كبيرا ذا شأن– أن ينزلق إلى هذه المغامرة الخطرة بكل المقاييس؟ ثم ما هو

الهدف منها؟ وما هي نهايتها المرتقبة؟ ثم كيف لهذه المشاعر أن تتسلل خلسة إلى قلبه المنهك بهذه السرعة المذهلة؟ ثم نظرات زوجته المريبة، والعبارات المبهمة التي لم يتبينها حين رأته يشرع في إصلاح دراجته القديمة ليتريض قليلا في الصباح –على حد زعمه– وعندما داعبه الحلاق على ملاحظاته المتكررة على طريقة تصفيف شعره (على غير العادة) شعر بحرج شديد وبدا كما لو كان الجميع يعلمون بأمره وما يمر به، وعندما زادت نوبات خفقان قلبه بكر بزيارته الروتينية لطبيبه، وأذهلته عبارات الطبيب المطمئنة وكان يمت له بصلة قرابة: "قلبك رجع شباب يا عمو".

كانت الحالة ممتعة بكل المقاييس، خرج من روتينه اليومي، عاد يستمتع بنشوة الانتظار مكالمة أو لقاء أو رسالة، نسي كل أمراضه ونسي مواعيد أقراص علاجه، وانفتحت شهيته للحياة، اشترى ملابس جديدة.

لكن كان أشد ما يقلقه هو صراع الثالوث البشري داخله، قلبه وعقله وجسده؛ قلبه الذي عاد ينبض بقوة من جديد بعد موات، وعقله الهائج عليه بموجات عتاب قاسية، ثم جسده الحائر بين مشاعر سامية واشتهاء مستتر خجول، وما كان يقلقه أكثر هو التساؤل الذي يلح عليه بين الفينة والفينة والذي اعتاد ترحيله: وماذا بعد؟ وأحيانا يبرز معه التساؤل الأخطر: ماذا لو انكشف سر هذه العلاقة؟ وكيف يبرر موقفه أمام الجميع أبنائه وزوجته وحتى أحفاده؟ وكيف سينهار صنم التعقل والرزانة والحكمة الذي عبدوه جميعا منذ عقود؟ مؤكد أنه لن يحتمل هذا الموقف المهين سيسقط ميتا لا محالة، وأمام كل هذه المخاطر الجمة فقد آن

الأوان لوضع حد لهذه المغامرة البالغة الخطورة.

واليوم استجمع قواه واتخذ القرار، وهو لم يعد يحصي عدد المرات التي اتخذ فيها هذا القرار، ثم جاء صوت الهاتف النقال بالنغمة المحببة حينئذ رقص قلبه وتم تأجيل القرار لحين إشعار آخر.

هوامش

(١)

الدنيا ليل والناس نيام والقمر يحتل الكون
والسمكة اللعوب تصنع الدوائر على صفحة المياه
القمر يرقب الحدث
قرب الشاطئ ضربة مجداف مجهدة لصياد عجوز
نصب شباكه وشراكه بحرفة السنين في انتظار السمكة اللعوب
والسمكة اللعوب تصنع الدوائر في دلال
وفي ضوء القمر الصياد العجوز غنى موال الصبر
وفاصل قصير من ناي حزين ثم غنى موال الهجر
والسمكة اللعوب تصنع الدوائر في تحدٍّ
والقمر يرقب الحدث
والصياد العجوز يخشى إن غاب القمر

ويغيب القمر وتنحسر مياه المد

ويغادر الصياد العجوز متوكئا على بقايا مجداف

متعثرا في شباكه متحسرا على القارب المقلوب

والشراك الفارغة والسمكة اللعوب تصنع الدوائر الضاحكة

هناك في الأفق البعيد في انتظار صياد جديد

(٢)

ذات مساء

لحظة بهجة دخلت قلبي على استحياء

لا أدري هل كانت تقصد؟

أم أنها أخطات العنوان

ذات مساء

لحظة بهجة دخلت قلبي

ربما غافلت الحارس

فهو لا يسمح سوى بدخول الأحزان

أحيانا قد يغفو قليلا

فتدخل خلسة بعض الأشياء

ولما ينتبه الحارس

يهرول خلفها

يسألها: ماذا تريدين من هنا؟

وترد مستعطفة: هل يمكن أن أمكث برهة؟

ويرد الحارس بجفاء: لا لا لا

فقد أخطأت العنوان فهذا مستودع أحزان

ذات مساء

لحظة بهجة دخلت قلبي على استحياء

دخلت تتلصص في الظلمة كالأشباح

وجدت أكوام الحزن مكدسة

تملأ كل الأركان شعرت بالغربة

دارت على عقبيها

قررت أن تغادر

فزهور البهجة لا تنمو وسط الأحزان

الصورة العاشرة

أيقونة أمي

في المدرسة القديمة كنا معا صبيانا وصبايا، الصبايا في الصفوف الأمامية. حافظت على مكاني خلفها في السنين الست، من موقعي أدمنت النظر إلى ضفائرها المجدولة بعناية، وياقة مريلتها النظيفة، وبعض شعيرات متمردة على الخصلات الناعمة، ورائحة بكر مميزة سكنت مع الزمن في الروح ومرات كانت تفاجئني، وتدير عنقها الرقيق نصف دورة، ومع نصف ابتسامة ونظرة حانية تهمس: "انتبه إلى الدرس!".

في الفصل وفي برودة طوبة القاسية، كنت دائما ما أتلقى بثبات ضربات المعلم على يداي بعصاه الرفيعة، جزاء لانصرافي عن الدرس، والتأمل المستمر في ضفائرها المجدولة بعناية وياقة مريلتها النظيفة، لكن ما كان يؤلمني أكثر هو مشهد بكائها الصامت بينما تصوب عيناها الدامعتان إلى يداي الممدودتين في إباء للمعلم ينهال عليهما بعصاه – وكأنهما لغيري –. وأخيرا وبعد أن ينتهي المعلم من مهمته، ترفع عينيها الدامعتين إلى وجهي في مشهد اعتذار صامت –وكأنها المسئولة– ومن ثم ينحسر الألم سريعا، وأستريح كأنني قدمت قربانا مقبولا.

لم أستطع التخلي عن التأمل في ضفائرها من أول الحصة الأولى، ولم تمل هي نصيحتها المتكررة إليَّ: "انتبه إلى الدرس!"، وواظب المعلم على مهمته الروتينية لأنال في النهاية جائزتي اليومية المحببة: تلك النظرة المشفقة

الحانية من تلك العينين السوداوتين الواسعتين الجميلتين العميقتين.

في الكنيسة يوم الأحد كانت أمي تطيل النظر إلى أيقونة صغيرة في ركن قصي، تشعل شمعة وأحيانا تعطيني أخرى لأشعلها بنفسي، وبينما رائحة البخور تعبق الأرجاء أرقب عيني أمي والدمعتان الحائرتان الأسبوعيتان تعبران الجفون برشاقة، لكنهما لا تسقطان أبدا بينما ترفع هي عيناها إلى الأيقونة كعيني أَمَة إلى مولاتها، وكنت أحس حرارة صلاتها من شدة قبضة يدها على كفي الصغير.

كنت أعرف أيضا أن أمي على وشك أن تلد، وجدتي مهمومة وهناك في الأفق شيء غائم.

في الصيف كان المكان الوحيد المتاح للقائنا هو فناء الكنيسة العتيقة صبيحة الأحد، فبعد صلوات القداس التمهيدية ينسل الفتية والفتيات من أهليهم بهدوء خارجين؛ الفتية ناحية غرفة القربان يمازحون عم حبيب –صانع القربان العجوز المرح– والفتيات ناحية غرفة المكتبة، وسرعان ما ينسلخ كلانا من أقرانه غير عابئين بتعليقاتهم المستترة حينا والمكشوفة أحيانا، وما إن نقترب حتى ينهمر من أفواهنا بعفويه ما اختزنّاه خصيصا لهذا اللقاء.

وتنصرم الدقائق مسرعة، ومع صوت ترديد مجاميع الشمامسة للقسم الأخير من ألحان القداس نعرف أن اللقاء على وشك الانتهاء، وبعد إنذار متكرر من الشماس المكلف بالنظام تسحب عيناها من عينيَّ بصعوبة بالغة ونفترق.

في الخريف رحلت أمي إلى الأبد ومعها وليدها وعذبتني بواكير ليالي اليتم الطويلة، ولما ذهبت للكنيسة وحيدًا لأول مرة توجهت مباشرة مندفعا إلى أيقونة أمي الأثيرة، كنت حزينا غاضبا، رفعت عينيَّ المغرورقتين بالدموع وهممت بعتابها، عندئذ أحسست بيد تقبض على يدي بقوة، ووجه مألوف يرفع عينين متوسلتين دامعتين إلى الأيقونة، ورغم سحابة البخور الكثيفة تبينت ملامحها والدموع الحائرة بين الجفون وأشياء غائمة في الأفق. إنها هي، لكنني تعجبت كثيرا لماذا فاقتني طولا هكذا؟ وتعجبت أكثر لما انقشعت سحابة البخور الكثيفة ووجدتني وحيدا.

في ذكرى آخر لقاء لنا منذ نصف قرن ذهبت متوكئا على عصاي إلى كنيستنا القديمة، توجهت مباشرة إلى أيقونة أمي الأثيرة، رفعت إليها عينيَّ المتعبتين، وعندما هممت بتلاوة صلاة قصيرة أحسست بضربات عصا رفيعة على يداي، وعندما دمعت عيناي سمعت صوتا حانٍ آتٍ من ماض سحيق يردد: "انتبه إلى الدرس!".

(١)

هوامش

أود لو أراك.. ولو من بعيد

نظرة واحدة

نظرة تبقى إلى المنتهى

نظرة تملأ العيون

نظرة لا يحدها أفق

نظرة لا يحدها زمن

نظرة لا يحدها جفون

أود لو أراك.. ولو من بعيد

ترتدين فستانك الوردي

وتتهادين متباطئة

ونتصنع الصدف الساذجة

ونتقابل في منتصف الطريق

هل تذكرين هذا الطريق؟

وتلك العيون وذاك البريق

هل تذكرين؟

أنا أذكر

كيف كان الناس يتساءلون؟

ويتهامسون بابتسامات خفيفة

عما بين هذه الجميلة

وهذا الفتى الأنيق

الآن لم يعد الناس يتهامسون

فقد رحلا.. الجميلة والفتى الأنيق

الجميلة ذهبت إلى قدرها

والفتى لعبت به الأيام

ضربته على الجمجمة بقبضة من حديد

أود لو أراك.. ولو من بعيد

نعم بعد كل هذه السنين

هل تذكرين هذا اللحن الشجي؟

أنا أذكره

أذكر كيف كنا نمشي راقصين

ولا نلمس الأرض

وليس لنا ظلال

ولا نرى الناس

ذاك الإحساس هل تذكرينه؟

أنا أذكره

بعد كل هذه السنين

أود لو أراك.. ولو من بعيد

أَوَ خطَّ الشيب شعرك؟

لا يهم

ولا تهم التجاعيد

لقد عرفت روحاً جميلة

والأرواح لا تنال منها السنون

ولعلك تسألين:هل أنا سعيد؟

وأجيبك ولعلك تستغربين!

نعم أنا سعيد

رزقت رفيقة وأنجبنا والآن لي حفيد

نعم أنا سعيد

فقد منحتني روحك سعادة تكفي طول العمر

تسري في شراييني

جرعة يومية

في نفس موعد اللقاء الأول

وأظنه طبقا لتقويمي

كنّا يوم عيد

(٢)

يوماً ستهتز الأطراف

وتغيم المشاهد وتختلط الرؤى

وتتشابه الوجوه ونتلعثم

وتحتار على الشفاه مخارج الحروف

وربما نتوه

وربما لا نقوى على الوقوف

وتثقل آذاننا وتتكاسل قلوبنا وكلانا

وتبدأ مراسم الاحتضار

عندئذ أستحضر الرقعة الصغيرة

التي لا زالت محفورة على لوح ذاكرتي المنهك

رقعة صغيرة عليها صورة قديمة

عندما ألمسها تتصاعد رائحة عطر رقيق

عندئذ أفيق وتذهب الأرواح الشريرة

الصورة الحادية عشر

الفيضان الأخير

أغادر الحافلة وأعبر القنطرة الصغيرة، فيبدو منزلنا الذي يشرف من شبه تل على مدخل قريتنا تظلل واجهته الجميزة العتيقة الوارفة، عن بعد أرى أمي في جلستها المعتادة بعد العصر على عتبة الدار في انتظاري –فاليوم هو الخميس الأول من الشهر– وما إن تلمحني عن بعد حتى تقف وخلفها الصغار وتفتح ذراعيها عن آخرهما، حتى أخشى أن يتفتق صدرها، وتظل هكذا، وأسرع مشفقا إلى أحضانها تضمني بقوة، ثم ندخل في شبه موكب إلى باحة الدار.

في المساء وعقب العشاء الشهري الدسم نتحلق جميعا حول الموقد الفخار الواسع؛ حيث المناخ القاري في هذه البقعة من الصعيد الأدنى نستدفئ ونشرب الشاي وأحكي أنا أخبار الدراسة والجامعة والمدينة، والصغار ينصتون فاغري الأفواه، وبعد أن أنتهي تبدأ أمي، وبينما تلقم نيران الموقد بقوالح الذرة بين الفينة والفينة تعرض أحوالها وهمومها عليَّ بصفتي (الكبير)، وإن كانت توقن في أعماقها أنها صاحبة القرار في النهاية.

سيطر على الأمسية الهاجس الأول الذي بدأ يفرض نفسه على الجميع، فلن يصعد النهر ثانية. وكانت أمي تعرض القضية كمحام بليغ إذ ماذا تفعل أرملة مسنة إذا لم يصعد إليها النهر ليغمر أرضها ويطميها ومن ثم ينحسر عنها وعندما يصبح قوامها مناسبا لا يكلفها الأمر سوى إيجار بقرتين ومحراث لنهار واحد ثم تنتظر الحصاد؟

وتلك كانت قضية بسطاء كثيرين على جانبي النهر من الشلال وحتي رشيد – ومنهم أمي– ولم يكن هؤلاء الناس مؤهلين لهذا الحدث الجلل، فالنهر يصعد هادرا عفيا كل عام يغسل وجه الأرض ويجدد شبابها، طبقا لتقويم ثابت زرعا وحصدا منذ آلاف السنين وهو لم يخلف معهم موعدا أبدا، وإن كان يداعبهم حينا بفيضه العارم فيتوحدون لصده، وحينا ببعض البخل فيصلون إلى الخالق كلٌ حسب عقيدته ليفي باحتياجاتهم. ولم يكن الناس يعرفون أن هناك طرقا أخرى للزراعة على الأقل في هذه المنطقة ذات الشريط الأخضر الضامر المحصور بين النهر والجبل.

ولم تنسَ أمي في نهاية الأمسية أن تسري إليَّ – مترددة– بخبر خطوبة ابنة خالي لرجل ثري من خارج الناحية، وتطلعت إلى وجهي بعينين مشفقتين وغادرت مسرعة، وأسندت رأسي بجوار الصغار النائمين بعمق، وعرفت سبب إحجام ابنة خالي عن زيارتنا منذ فترة، وجثم الليل على صدري ونمت حزينا.

في صبيحة الجمعة كان كل شيء جاهزًا البقرتين والمحراث وفسائل البصل الوليدة، أخط أنا بالمحراث الخط الأول كما علمني أخي الكبير، ويناول الصغار حزم شتلات البصل لأمي، فتضعها واحدة واحدة بعناية مستندة على جانب الخط المشقوق، ثم أعود بشق خط ملاصق، فتدفن رؤوس الشتلات وتستقيم قليلا في الخط الأول، وهكذا قبيل الغروب ننتهي من العمل، وبينما السماء تعلن عن فرحتها بقوس قزح وطيور الكروان تحتفي بالمشهد وتكرر دعائها المحبب "الملك لك". تتنفس أمي

الصعداء عندما تتطلع إلى قطعة الأرض التي تبدو كلوحة مرسومة بعناية، تنام فسائل البصل الوليدة على جوانب الخطوط المتوازية مطمئنة لغذائها ورَوائها الذي تركه النيل عندما انحسر في أواخر توت تحت جذورها، في طبقة جاهزة مسمدة بالغرين الصافي، ولم أكن أدري أن هذه هي المرة الأخيرة التي نزرع فيها محصولا يتسابق التجار عليه، ويدفعون عربونه لأمي قبل الحصاد بشهور.

منذ رحيل أبي، كانت أمي التي لا تعرف القراءة ولا الكتابة تدبرنا طيلة السنة بهذا المدخول الوحيد، إلى جانب ما تنتجه دواجنها على السطح وشاة ولودة وبعض الماعز والأرانب.

نزلت إلى حافة النهر أغتسل، وما إن لمست المياه الباردة حتى تذكرت أخي الأكبر الذي علمني العوم والصيد والخط بالمحراث في هذا المكان، وتداعت مشاهد كثيرة، كان النهر وأخي الأكبر وابنة خالي وطيور الكروان وقت الغروب هم قاسمها المشترك الأعظم.

في صباح السبت، غادرت إلى الجامعة متبوعا بدعوات أمي المهمومة؛ فلم نكن ندري ماذا يخبئ القدر بعد أن يتوقف النهر عن الفيضان، وتلك كانت مصيبة أمي الثالثة بعد فقد رجلها وهي في ريعان صباها، والثانية فقد أخي الأكبر في الحرب اللعينة، والثالثة على الأبواب.

في موعد الفيضان التالي رحلت أمي، وبعدها رحلت ابنة خالي إلى بلدة زوجها، وعندما ارتفعت الطائرة ونظرت من النافذة ورأيته من علٍّ يزحف كدودة هاربة من تحت نعل، انسابت دمعة ساخنة وانساب معها

شلال الألم الطازج؛ هزمنا في الحرب، ومات أخي، ومات الزعيم، ولن يصعد النهر، ورحلت الحبيبة، وانهار المنزل العتيق الذي كان يشرف على مدخل القرية الوحيد، واجتثوا شجرة الجميز الوارفة الظلال، واختفى الكروان وانتشرت طيور الغربان بكثافة، ولم تعد أمي تنتظرني بذراعيها المفتوحتين، وحصلت على ورقة من الجامعة، وبعت نصيبي في قطعة الأرض، وسافرت إلى الخليج واشتريت جلبابا أبيض وأطلقت لحيتي.

هوامش

(١)

أنت حزين

أشرعتك منكسة

بالوا في مجراك

بصقوا غسلوا مؤخراتهم

ألقوا بالجيف

يا نهر العاشقين

يا ملهم الشعراء والآلهة

أوقفنا فيضك ضاعت المواقيت

ضفتاك أصبحتا كجرح مفتوح

يملؤه الصديد

ليتك تجف

لتظهر جرائمهم النائمة في قيعانك

ليتك تجف وتعود من جديد

في واد جديد

(٢)

ما عاد لي في هذه الأرض أحباب

ماذا يضير لو بدّلت أحبابي؟

لكن ذاك ظل عسيراً على قلبي

والعقل يسأل كل صبح عمّا بي

أجبت: نفسي وروحي وجسدي أضحوا أغراباً

في موطن كنت فيه السور والباب

غزانا سقط الفكر من كل ناحية

ولم يعد لنا سوراً ولا باب

وصفحة مياه النهر أنت من الأسن

ومراكب الشمس قد هجرتك يا حابي

قفوا نبكي على أطلالها الخربة

على عزٍ هوى.. ونحن نعرف الأسباب

الصورة الثانية عشر

رحلة الغروب الأخيرة

مدخل القرية الرئيسي طريق ترابي ضيق قصير، يبدأ من رصيف المحطة الصغيرة يصطف على جانبيه صفين من أشجار الكافور السامقة، ويفضي إلى ساحة محاطة ببيوت قديمة؛ أحدها من طابقين مقام على شبه تل يواجه امتداد الطريق، ويكشف مباشرة القادم من رصيف المحطة ودائما ما تظهر نوافذه المستطيلة وكأنها مفتوحة دائما، وعندما يطلق قطار الغروب صفارات إعلان دخوله المحطة أنزل أنا مسرعا درجات سلم الرصيف، عندها يلوح نصفها الأعلى – إلا قليلا– من الشباك، تنعكس عليه أشعة شمس الغروب البرتقالية كلوحة مرسومه من العصور الوسطى لرسام شهير، وبينما طيور الكروان تحيي المشهد بدعائها المحبب ورائحة أشجار الكافور تعبق المكان الهادئ، أقترب مصوبا عينيَّ ناحية المنظر الأسطوري الذي تبدأ ملامحه تتضح بالاقتراب، أبطئ من خطواتي وأقصرها قدر ما أستطيع حتى أستطيل عمر اللحظة وأستمتع بالمشهد قدر الإمكان.

وعندما تتقلص المسافة لأقصى قدر أرفع رأسي وتتلاقى العيون، وبينما تتكئ هي على حافة الشباك ألمح مفرق صدرها فتسري في أوصالي موجة اشتهاء عارمة، يعقبها موجة خجل أزيحهما بسرعة كما تزيح هي خصلة شعر انسدلت فجأة على جبهتها، ثم تنهمر عليَّ زخات من رائحة

عطر رقيق تختلط برائحة أشجار الكافور، مع دعاء الكروان المتكرر وندف غيامات ناصعة البياض متناثرة في السماء الرائقة، مصطبغة بلون قرص الشفق الأحمر، ولحن محبب يتصاعد –لا أعرف من أين– وأحيانا قوس قزح، وكنت أحس ساعتها أن الزمن قد كف عن السريان وأن الأرض كفت عن الدوران. لم أعد أستطيع استعادة بقية التفاصيل فالذاكرة وهنت.

آه تذكرت الآن..

تذكرت أنه غربت شمسان، ولم أتناول أي طعام والألم يتصاعد بشدة من قدميَّ المتورمتين، لا يهم يجب أن أبدأ رحلتي اليومية المقدسة، عندما يطلق قطار الغروب صفارته مغادرا أنزل درجات سلم الرصيف مسرعا، عندئذ يظهر نصفها الأعلى –إلا قليلا– من الشباك المستطيل، تنعكس عليه أشعة شمس الغروب البرتقالية كلوحة مرسومة من العصور الوسطى لرسام شهير. وبينما طيور الكروان تحيي المشهد بدعائها المحبب ورائحة أشجار الكافور تعبق المكان الهادئ...

كنت أتمنى أن تغرب الشمس مرتين أو ثلاث في اليوم، حتى أكرر رحلتي المقدسة، فالألم يذهب عني وقتها فقط.

وما إن يحل المساء وأهجع بجوار هذا الحائط البارد حتى ينفجر الألم في كل خلاياي، فقط يهدأ قليلا عندما تأتي أحيانا هذه السيدة ذات العينين الدامعتين دائما، وتدس بجواري بعض الطعام وأحيانا يكون ساخنا، بعدها يسود الظلام وأستريح من مضايقات هؤلاء الصبية الأشقياء.

تشرق الشمس، وأفتح عينيَّ على صوت الفتية والفتيات بزي المدرسة متضاحكين مسرعين لركوب قطار الصباح الباكر، آه أمسكت الآن ببعض التفاصيل.. كان قد ولد بيننا شيء ونحن بعد صغار لم نعرف كنهه وقتها في أيام المدرسة الابتدائية في قريتنا الصغيرة الهادئة، ثم بدأ هذا الشيء في النمو بسرعة وبراءة عندما انتقلنا إلى المدرسة الإعدادية؛ في المدينة نركب معا قطار الصباح الباكر طيلة الأسبوع نتجاور أحيانا جالسين وأحيانا أخرى واقفين في الزحام الشديد، وكنت ألحظ عن قرب التغير المتسارع في تضاريس جسدها، بينما كنت أنا أستجدي بالمتابعة اليومية في المرآة استطالة بعض الشعيرات التي نبتت خلسة أسفل أنفي، لكن أشياء أخرى سرت في جسدي كانت تؤجج مشاعر لم تتبلور بحكم السن، وكان يوم الإجازة الذي لا نتقابل فيه يوما بائسا.

آه عاودني الألم اللعين.. لم أعد أستطيع القيام برحلة الغروب المقدسة، عشش الألم في جسدي كله والسيدة ذات العينين الدامعتين دائما لم تعد تأتي إلا قليلا، حتى الصغار الذين دأبوا على مداعبتي قوسوا الطريق من حولي لتجنب موقعي بجوار هذا الحائط البارد أسفل المنزل العتيق ذي الشبابيك المفتوحة دائما. الآن أقبع ساكنا أرقب المارة الذين بدلوا نظرة الإشفاق القديمة إلى نظرات أخرى لم أستطع تفسيرها، عدا السيدة ذات العينين الدامعتين لم تتبدل نظرتها، لكنها لم تعد تأتي إلا قليلا، وأحيانا كان يأتي بصحبتها صبية جميلة، وكنت ألحظ جفولها عندما تتطلع إلى وجهي.

تذكرت الآن بعض التفاصيل.. جرت الأيام سريعا وافترقنا في المرحلة الثانوية، واقتصر التواصل على مناسبات القرية والخطابات الملتهبة، ولا أعرف لماذا كانت النهاية مبهمة دائما؛ فنحن لم نتطرق لأحلام أبعد من يومنا الحاضر، لم نتحدث يوما عن زواج أو أشياء من هذا القبيل، والغريب أنني كنت أخجل من شعور اشتهاء كان يراودني أحيانا وكنت أطرده بسرعة.

الذاكرة اللعينة تتوقف عند هذا، رغم أنني أعرف أن هناك شيء غائم، شيء متحوصل في عظام جمجمتي تمدد مع الزمن يضغط على كل خلايا جسدي المنهك، آه لو تذكرته.

كان الوقت قبيل الغروب عندما جاءت سيارة بها خطوط حمراء تطلق أصواتا عالية، وضعوني على ما يشبه سرير، وربطوني بأحزمة وأدخلوني إلى جوف السيارة، وكانت السيدة ذات العينين الدامعتين دائما تقف على مقربة مني متشحة بالسواد، لكن هذه المرة كانت دموعها تنهمر بغزارة، وتوقف المارة مهمهمين بعبارات مبهمة.

من خلال النافذة الخلفية وأنا مضطجع على ظهري ومربوط بالأحزمة، رأيت المشهد كله للمرة الأخيرة. وهذه المرة كان بكل التفاصيل الغائبة؛ وجه السيدة ذات العينين الدامعتين تنعكس عليه أشعة الغروب البرتقالية، وأشجار الكافور السامقة، وطيور الكروان، وقوس قزح. وعندما وضعوا قناعا على فمي وأنفي تسربت إلى روحي نسمات عطرها الرقيق المختلط برائحة عبق أشجار الكافور، وذهب الألم وسمعت صفير مغادرة قطار الغروب، ودعاء الكروان المحبب: "الملك لك لك لك".

هوامش

(١)

أبكي كل يوم .. أبكي بدموع غُزْرْ

كثكلى تبكي رضيعها البكر

أبكي على حبي الأول

أبكي على حبي البكر

أبكي على أحلى ساعات العمر

أبكي على أحلى وجه رأيته

في كل السنين

وجه الحبيبة وجه القمر

وجه ذات العيون السمر

الدموع حفرت أخدودا على وجهي

أخدودا أعمق من كل أخاديد العمر

آه يا حبي البكر

بريئا رحلت م تعرف الذنوب

ولدت في الفجر ورحلت عند الظهر

(٢)

أليس غريباً

أني لم أشتهيك كامرأة إطلاقاً؟

أليس غريباً

أني لم أرَ تفاصيلك كل هذا الزمان؟

أليس غريباً

أني لم أرَ كل هذا الجمال

كل هذا الزمان؟

الآن تذكرت لماذا؟

كنت أتخيلك روحاً لها عينان

كنت أتخيلك روحاً لها شفتان

كنت أتخيلك روحاً لها ساقان مرمريتان ونهدان

روحاً لها يدان جميلتان

روحاً ترتدي فستانًا

ولأن الأرواح لا تبلى

لذا عشت معي كل هذا الزمان

الصورة الثالثة عشر

الشبح

عاش الرجل طفولة مرتبكة؛ ماتت أمه وهو في الثامنة من عمره، ثم تبعتها جدته التي تولت المهمة بعدها، واكتملت المؤامرة برحيل أبيه شابا بينما هو في أوج سني مراهقته، وأحس وكأنه فرع أخضر وحيد على شجرة جفت كل أغصانها، وماتت جذورها من زمن.

من يومها رافقه شبح الوحدة اللعين كظله. نكلت به الأيام أيما تنكيل، أصابت عوده الأخضر برضوض كثيرة، بعضها طال جلده وبعضها لحق عظامه، وبعضها أصاب نفسه وحتى روحه، وأيام لم يكن له أين يسند رأسه في آخر النهار، وأيام كانت الوجبة التالية في علم الغيب.

ظل شبح الوحدة اللعين يلازمه كتوأم ملتصق، ولما وجد عملا ورزق رفيقة وأنجب صبيتين جميلتين ظن أن الشبح اللعين قد ذهب إلى غير رجعة، لكن عندما استطلع الأيام ظهر الشبح مطلا بنظرة تحدٍّ، فالابنتان مصيرهما إلى رجلين، ثم تنسيان بيت أبيهم إلى الأبد، ويعود الشبح لملازمته من جديد.

كان الأمل في صبي ليكون سنده عندما تهرول السنين، واستمعت السماء لتوسلاته وجاء الصبي، وتركه الشبح لتأملاته التي ود لو لم يفق منها. فهو لن يعود وحيدا بعد اليوم، فهذا الفتى سوف يعيد النضارة للشجرة الذابلة لتورق أغصانها وتتمدد من جديد.

نما الفتى، وأعطاه الرجل كل وقته، ومن أجله أقلع عن كل سيئ في حياته؛ أقلع عن التدخين وجود في عمله أكثر.

كبر الفتى، وتلاقت الأرواح وذاب فارق السنبن بين الابن والأب، ونهض الفتى وانتقم لأبيه من ظلم الدنيا؛ حصد الشهادات والنبوغ والتفوق، وخلفه أبوه يشجع ويدعم ويهتف بأعلى صوته: فلتذهب إلى الجحيم يا شبح الوحدة اللعين. ها قد رزقت رفيق وصديق من صلبي أبثه ويبثني الهموم والأحلام والأماني، وها هو غصن وارف سنستظل به عندما تتكاسل القلوب والكلى والعيون، وسوف نناشده كل يوم ألا يغادرنا، فقد تمحور الجميع حوله.

هاجس خفي كان يباغته أحيانا أن شبح الوحدة اللعين متوارٍ خلف شيء ما، لكن سرعان ما كان يطرد الخاطر بسرعة متوغلا أكثر في أحلامه.

بتشجيعه ومباركته، سافر الشاب إلى أعالي البحار لينهل مزيدا من العلم والنجاح، وكان المتفق عليه ألا يقترن برفيقة من خارج الوطن، ليس كرها فيمن هم من خارج ولا حبا فيمن هم داخل، لكن الهدف المستتر كان غير ذلك على الإطلاق.

وعندما وقع الشاب على وثيقة الزواج أمام عمدة المدينة الباردة، أحس الرجل أن ابنه قد وقع على صك إطلاق سراح شبح الوحدة اللعين من سجنه وطاله الحزن والغضب، وعاد الشبح اللعين مختالا يصيح في وجهه بشماتة، ها هو الفرع الذي سقيته ورعيته سينشر ظلاله هناك خلف الأفق البعيد.. هناك في أعالي البحار.

هوامش

(١)

كلقمة مسمومة تقيأتني المدينة في الهزيع الأخير

غلقت الأبواب خلفي بعنف

ودفعت المزاليج

رفعت الأقلام ماتت الأحلام

انحدرت دمعات بكر ساخنة على خدود كثيرة

من خلف الأسوار صوت امرأة تجهش بالبكاء

أشفقت عليَّ السماء

تضاغطت الغمامات

لتفسح طريقاً لشعاع نحيل من قمري الحزين

هرب الفجر وانفجرت الشمس

والطريق ظهر.. طويل.. وعر

هرولت وأنا بلا حذاء

بالكاد وبعد أن نزفت قدماي

لحقت بالعربة الأخيرة في قطار المساء

ورحلت بعيداً بعيداً نفسي كسيرة

وأحمل حزنا في الأحشاء

(٢)

الجنس: سامي

العرق: من كيمي

الموطن: ضفة نهر

سبب الموت: القهر

لديه جرح قديم في القلب

وآثار طعنات في الظهر

أحب مرة واحدة

وذاق اليتم مرتين

كان يفكر كثيرا

كان يحب الفكر

كان لديه عقل

أكفانه من النوع الرخيص

كان يكتب الشعر

مات مرتين

مات من القهر

مات من الفقر

الصورة الرابعة عشر

الأرمل

كقطار خرج عن مساره وانقلب، أو كتشكيل جميل صنعه طفل من الرمال الندية على شاطئ، ثم أتت موجة غاضبة ومحت كل تفاصيله، هذه هي الصورة بين عشية وضحاها، رحلت رفيقته دون أي سابق إنذار ولوحتي إنذار كاذب، وبدا له أنها النهاية؛ فلن تعود تلك المنظومة الحياتية التي اعتادها إلى ما كانت عليه، فبعد أن فرغ العش الكبير من كل الأفراخ الصغيرة، وكلٌّ طار إلى عشه الجديد، وتقاعدا وقد سبقها بالسنوات الثلاث التي كان يكبرها بهم، وكانت وتيرة حياتهما هادئة رتيبة رتابة محببة، قاوما بشدة أي شبهة تغيير في نمطها الهادئ المنتظم.

في زحمة مجلس العزاء، كان يعلم أن الحزن الأكبر قادم بعد أن يغادر الجميع وتبدأ مراسم المواجهة مع الوحدة مع الجدران الباردة الصامتة، فلا نقاش حاد ولا هادئ، ولا كلام عن ماضٍ أو مستقبل، ولا بحث في شئون الأولاد والأحفاد، فقد جاء الموت وعشش بين الجدران، وقصم ظهر حياته، وحتى الذكريات أصبحت مؤلمة وبلا قيمة كورقة نقد نصفها قد ضاع.

يؤلمه أكثر أن يصبح شبه عالة بعد أن لاحظ أن بناته يتهامسن عما سيحدث.. هل سيعيش وحده أم يقبل العيش مع إحداهن؟ والأكثر إيلاما أن يضطر لمغادرة بيته أو يذهب لدار مسنين.

لقد تعب ومل من تكرار القصة لكل معز يأتي لمصافحته؛ لأن كل مرة كان يحكي فيها عن كيف ذهب ليوقظها فوجدها بلا روح، كان الجرح يزداد عمقا والمشهد المؤلم بكل تفاصيله يتمدد ويحتل مساحة أكبر في خلايا الذاكرة، وأصبح ككابوس لا يرحمه حتى في ساعة الغفوة من الإجهاد.

في اليوم الثاني من العزاء جاء أقارب من سفر، وكان بينهم قريب ماتت رفيقته منذ عدة سنوات ولم يكن يتتبع أخباره، اقترب منه الرجل وواساه بالكلمات المعتادة، وخطر لصاحبنا أن يسأله عن أحواله وكيف سارت أموره بعد ما حدث؟ وفعل وألقى السؤال مترددا، ثم بهت عندما أجابه الرجل بسرعة: "تزوجت"، في البداية تخيل أن الرجل يمازحه للتخفيف عنه، لكن الرجل استطرد في شرح الأسباب وبدا كما لو كان يدفع عن نفسه تهمة، كان في مثل سنه تقريبا أي على مشارف السبعين. تابع الرجل شرح أسبابه، وعندما لاحظ علامات الاندهاش على وجهه توقف، ثم انسحب من جواره وهو يشيعه بنظرة هي مزيج من الدهشة والاستغراب من الفكرة التي اعتبرها جنون مطبق.

في اليوم الثالث حضر الكاهن إلى قاعة العزاء، وتلا صلاة قصيرة إيذانا بانتهاء مراسم العزاء وانصراف الجميع كلٌّ إلى حال سبيله، وكان في الليلتين السابقتين ينام في قاعة العزاء مع الضيوف القادمين من سفر بعيد، وربما الزحام والمسامرات كانت قد خففت عنه آلام بواكير ليالي الوحدة، لكن ذلك انتهى الآن وعليه أن يعود اليوم إلى منزله، حاول بناته أن

يستضِفنه فترة حتى يطمئننَّ عليه، لكنه أصر على العودة إلى بيته، ورفض حتى قدوم أحد معه. فهو يريد مواجهة الحقيقة كما هي مجردة، عليه أن يرضى بالعيش نصف حياة، فالبديل هو الخروج من إطارها تماما، والدفن حيا في دار مسنين يبتلع أقراص الاكتئاب، أو يشارك أحد أحفاده غرفته في شقة إحدى بناته، لكن موروث المقاومة الكامن بين ضلوعه. انتفض وتذكر مقولة أن حياة الإنسان تنتهي بموته هو وليس بموت الآخرين، ثم تذكر الأمنيتين اللتين كانت لا تمل من ترديدهما: الأولى هي أن ترحل دون مقدمات، والثانية هي أن تسبقه في الرحيل، وكانت أسبابها في الأولى مقنعة يشاركها فيها كثيرون، أما في الثانية فكانت تعتقد بأن شريكها قوي يستطيع مواصلة حياته بمفرده، أما هي فكانت تتخيل وتحكي سيناريوهات مفزعة فيما لو حدث العكس ورحل هو أولا، وتركها وحيدة تتقاذفها بناتها بينهن وتهينها الدنيا والظروف والصحة، هذه السيناريوهات جعلته بينه وبين نفسه ورفقا بها وخوفا عليها يستحسن الفكرة، وكان يداعبها مطمئنا بعبارة "اطمئني سنرحل معا".

أوصله زوج إحدى بناته وحاول أن ينزل معه لكنه رفض، فتح الباب وخيل إليه أنه يسمعها تناديه باسمه، كالعادة عندما يأتي من الخارج ويفتح الباب بمفتاحه الخاص، جفل قليلا وخطر له أن يتراجع ويغلق الباب ويعود، لكن أحد جيرانه جاء بينما الباب مواربا وواساه، وكان يحمل قفص العصافير الذي تركوه في رعايته أيام الجنازة، شكر جاره ودخل، لكنه ترك الباب مواربا، ووضع العصافير في مكانها المعتاد، وذهب يبحث لها عن

غذائها، وكالعادة عندما كان يهم بالبحث عن شيء ناداها بصوت عال، لكن نصف الكلمة احتبس في حلقه، وانهمرت دموعه غزيرة حارة، وجرى نحو الباب الموارب وأغلقه، وبكى بصوت عال، وارتفع صوت زقزقة العصافير.

وجد غذاء العصافير وهدأ، وهدأت العصافير بعد بدأت في التقاط غذائها، وتناول أقراص دوائه، وأعد فنجانًا من قهوته المفضلة وتمدد على أريكة في صالة الاستقبال ونام، وجاءته مبتسمة كمن حقق أمنيته للتو، وخطر له أن يسألها عن بعض الأشياء التي لا يعرف مكانها، لكنه فضل ألا يشغلها عليه فهو قوي كما قالت ويستطيع مواصلة الحياة، ونام نوما هادئا، واستيقظ على فجر يوم جديد مختلف باكورة أيام مرحلة جديدة من حياته عليه أن يواجهها بأسلوب جديد، أسلوب الرجل (الأرمل).

هوامش

(١)

اهدئي قليلاً فأنا أعرف أنه لم يعد في الوقت متسع

أعطني مهلة قصيرة هناك وجه غائب أود لو أراه

هناك إنسان أسأت إليه أود لو أطيب خاطره

هناك صديق وفي أريد أن أشكره

هناك أماكن تسكن روحي

هناك بيت أود لو أبنيه

هناك حديقة أود لو أزرعها

هناك صلاة لم أتلُها

هناك أشعار لم أكتبها

هناك محيط أود لو أعبره

هناك واقع مرير أود لو أغيره

هناك أناس مظلومون

هناك طاغية سوف أقهره

اهدئي قليلا كفاكِ هرولة

هناك حفيد أعطني مهلة حتى أراه

(٢)

أحسست أنها مؤامرة

لما سألت عنك يا صديقي وقالوا قد رحل

كنت قد نسيت مؤامرات الحياة

فقد مرَّ على آخر مؤامرة زمن

مؤامرة جديدة..

بعثت ذكرى مؤلمة

ذكرى أيام الأحزان والمحن

رحلت يا صديقي

رحلت دون أن أودعك

دون أن ألقي نظرة وداع على ملامحك

رحلت دون أن أشكرك

أشكرك على كل ما اقتسمته يوماً معك

أحزاني وأفراحي

ومقعد المدرسة

وذكريات الحب الأول

والحلم المشترك

سامحني يا صديقي

تركتك تذهب وحيداً

إلى المستقر الأخير

كان يجب أن نتمشى معا

لنحكي قليلاً

كان يجب أن أصحبك

الصورة الخامسة عشرة

السجين

تبادل حديثا مقتضبا مع الشرطي أثناء استلام الأغراض الشخصية من قسم الأمانات، ثم توجه إلى ركن الغرفة خلف ستارة متهالكة، وخلع الأفرول الأزرق (الميري) وارتدى ملابسه المدنية القديمة، وعلى غير العادة في مثل هذا الموقف لم يكن في عجلة من أمره. سلم الأفرول وبقية العهدة للشرطي، ووقع في الدفتر العريض متآكل الحواف، وناول القلم للشرطي، وألقى سلام مقتضب وغادر غير متعجل متبوعا من الشرطي بنظرة تساؤل، توجه إلى الكانتين لاستلام إخلاء الطرف من المديونية تمهيدا للخطوة الأخيرة؛ وهي استلام مستحقاته من الخزينة والتوقيع في مكتب الضابط النوبتجي، لتبدأ المراسم الأخيرة لتشييعه إلى بوابة الحرية.

بظهر عقلة السبابة اليمنى نقر برفق على باب غرفة الضابط وظل واقفا، بدا الضابط وكأنه يعرف من القادم ولماذا؟ حيث كان في اللحظة عينها يدون في دفتر الأحوال بيانات واقعة الإفراج الوحيدة المقررة اليوم عن سجين واحد. وبينما لا يزال واقفا أمام الباب قام الضابط وعدل ثيابه، وسأله إن كان يرغب في توديع أحد من زملائه، فتمتم بكلمات شكر مبهمة، فأشار له الضابط بإيماءة مفهومة، فتقدم وتناول القلم الجاف، ووقع حيث أشار له الضابط الشاب بطرف سبابته على موضع في نهاية صفحة دفتر الأحوال.

منذ علم خبر الإفراج عنه قبل أسبوع، وكان متوقعا نظرا لاستيفاء كل الشروط من حيث المدة وحسن السلوك ونوع القضية وتزكية إدارة السجن..إلخ، انفجرت كوامن كثيرة داخل نفسه الحزينة؛ حيث خروجه بعد عشرين عاما إلى عالم جديد تغير على مدى هذه السنين الطويلة لهي مغامرة، أو على الأصح مقامرة غير محسوبة على الإطلاق لرجل على مشارف الستين، فهو لن يبدأ حياة جديدة في هذه السن ومعارفه نسوه، وقطع هو بإرادته كل علاقة له خارج الأسوار منذ زمن بعيد، لكن هذه اللحظه وإن كانت متوقعة إلا إنه تناساها عامدا، وقد كان يستغرب حالة الفرح الطاغي لزملاء سبقوه عندما علموا بخبر الإفراج عنهم.

استساغ صاحبنا هذا النمط من الحياة؛ يتبع اللوائح والقوانين بكل دقة، وينفذ ما يكلف به بكل احتراف ممكن، ويتعامل مع زملائه باحترام وجدية، ويمارس أنشطة منتجة في ورشة السجن تدر عليه ما يكفيه، مما ظلله بمظلة حماية ثلاثية الأبعاد سبغها عليه رؤساؤه وزملاؤه والقانون.

انتهت إجراءات الإفراج الروتينية المعتادة، وتوجه الجميع في شبه موكب صغير؛ الضابط النوبتجي والبلوكامين يتوسطهم هو، وخلفهم بعض الزملاء (السابقين) العاملين في نظافة فناء السجن، مع بعض التهاني والتعليقات المرحة المشوبة بالحذر.

بدأت مشاعر القلق تتصاعد مع أولى خطوات المسافة من سلم مدخل المبنى وحتى البوابة الرئيسية، وكلما اقتربت البوابة كلما جثمت على صدره مشاهد وأحداث كان يظن أنها محيت. وصلوا إلى خط النهاية،

وبيد باردة ووجه ممتقع صافح الجميع. وعندما فتحت البوابة الحديدية وخطا خارجها وسمع صوت ارتطامها تغلق خلفه، أحس كأنه جنين خرج من رحم أمه ضربت عيناه أشعة شمس مغايرة، واخترقت أذناه ضوضاء غريبة، ونفذ إلى أنفه روائح لم يعتدها. وفجأة استدار وأخذ يضرب البوابة الحديدية بكلتا يديه، وانتابته نوبة بكاء هستيري، وأخذ يصيح بأعلى صوته: "افتحوا الباب.. افتحوا الباب".

هوامش

(١)

لم تعد هناك مساحات في خلفيات أبوابنا
شغلتها المزاليج والسلاسل والعيون السحرية
لم تعد هناك مساحات على الأسوار
شغلتها لافتات التحذير من بيع الأرض.. والهوية
لم تعد هناك مساحات للابتسام على الوجوه
لم تعد هناك مساحات للتأمل في العيون
النظرات زائغة
والدموع كامنة تحت الجفون
نساؤنا حزانى
ولم يعد أطفالنا يمرحون

لم يعد هناك مساحات على أجسامنا

ولا على رؤوسنا

ولا عتبات أبوابنا

شغلتها المزاليج والسلاسل

والعيون السحرية

والجميع خائفون

الكثيرون والأقلية

(٢)

جرحت في بيت أحبائي

جرحاً طال النفس

جرحاً طال الروح

جرحاً طال عظامي

وطال بكائي

جرحاً طال الأشياء الكبرى

طال الأسماء الكبرى

جرحاً طال القلب

وطال شفائي

جرحاً خلف ندبة كبرى

تضاريسها

ألمي ودموعي ودمائي.

الصورة السادسة عشرة

المظاهرة

أصخت السمع علَّني أسمع على باب القسم صوت هتافات تردد اسمي، أو يستدعيني المأمور لمقابلة وفد من المحامين، أو أي مظهر احتجاج يدل على أنني هنا ضد رغبة أحد، إلا إن شيء من ذلك لم يحدث، وبت ليلتي في غرفة الحجز القذرة مع اللصوص والبلطجية، وأظن أنني لن أنسى تلك الليلة ما حييت.

في الصباح جلنا في شوارع المدينة بعربة الترحيلات للعرض على النيابة، ألصقت وجهي بقضبان الشباك علَّني أجد أثرا لما حدث بالأمس، لكن لا شيء؛ الناس متجهون لأعمالهم، ورائحة الأطعمة في الشارع، والمقاهي تتهيأ لاستقبال روادها، وامرأة تفرد سجادة على سور البلكونة بملابس النوم، حتى الشارع الذي قبض عليَّ فيه وسط المظاهرة الحاشدة بدا هادئا وكأن ذلك حدث من سنين وليس بالأمس. سألت الشرطي عن الإجراء الروتيني المتوقع في مثل هذه الأحوال، أجاب باقتضاب: "أربعة أيام على ذمة التحقيقات"، وشعرت بغصة في حلقي وانتابني إحساس من غرر به.

عند الظهر عُرضت على وكيل النيابة الذي لم ينظر حتى إلى وجهي، وأملى على السكرتير ما توقعه الشرطي، وعدنا من نفس الطريق ولم أتطلع من شباك عربة الترحيلات، لكنني تطلعت إلى أن تنتهي هذه المحنة رحمة

بأبي المريض، وأمي التي لو علمت ما حدث لسقطت ميتة في الحال. كانت تلك المرة الأولى التي تسلب مني حريتي، وهالني الفرق الشاسع بين ما كنت أعرفه وما رأيته رأي العين، وهالني أكثر مستوى تفكيري الضحل الذي لم يفرق بين مظاهرات الهواة في المدرسة الثانوية وبين مظاهرات المحترفين في الجامعة؛ كانت كل مؤهلاتي في مظاهرات المدرسة صوت جهوري، وبعض الهتافات التي أبتدعها في حينها موزونة وبها بعض الموسيقى – نظرا لهوايتي للشعر– حتى يسهل تكرار ترديدها، ولم تخرج عن سقوط الاستعمار أو الهتاف بحياة الزعيم، وقد نتندر أحيانا ونهتف بسقوط المطر في الشتاء أو يعيش السمك في الماء، المهم أن تستمر المظاهرة حتى يسقط اليوم الدراسي بالكامل ونعود لمنازلنا. وإن كنت في هذه الحقبة قد استمرأت دور الزعيم وأنا محمول على الأكتاف، وكانت مصر في أواسط الستينيات وكنت أنا في الثامنة عشر.

كان عامي الأول في الجامعة هو عام الهزيمة وقد تغير الوضع بزاوية حادة، لكنني لم أستطع استيعاب ما جرى. كان ما يجري في الجامعة مخططا، أما في المدرسة فكانت الأمور عفوية، في الجامعة رأيت أشياء مختلفة وشعارات مختلفة وأناس مختلفين، أما في المدرسة فكلهم أقراني أعرفهم بالاسم والمكان، في الجامعة سمعت شعارات غريبة بعضها آلمني وبعضها أحزنني، وفي الجامعة ذهبت البراءة والعفوية إلى الجحيم.

ظلت معي مشكلة إحساس الزهو الذي لم أستطع التخلص منه، وأنا على أكتاف الزملاء أردد الشعارات والجميع يردد خلفي، فقد خيل إليَّ

للحظة أنني أصبحت زعيما، وفي الحقيقة كنت فقط واجهة ذات صوت جهوري وموهبة في ابتداع الهتافات، واستغل المحترفون سذاجتي ووضعوني في المقدمة دائما إرضاءً لغروري وتنفيذا لمخططهم الخبيث. في البداية اقتصر دوري على المظاهرات الواقفة أظل أهتف وأهتف وعندما تتصاعد الأمور، وفي أول بادرة لاتخاذ أي إجراء من الإدارة أو الشرطة انسحب بهدوء مرتديا نظارتي السوداء، فلم يكن في خططي أن أبدأ الصدام مع السلطة؛ لأنني في داخلي لم أكن على قناعة بكل هذه الشعارات أو معظمها على الأقل.

في المظاهرة الأخيرة استدعوني من المدرج على عجل، ولما خرجت وجدت الجميع في انتظاري، أعطوني رأس الموضوع وتركوا لي ارتجال الهتافات في حينه، فتلك هي موهبتي التي أدخلتني السجن، بدأنا المظاهرة وقوفا كالمعتاد، حمي وطيس الهتاف وجاء من حملني على الأكتاف، وفوجئت بالمظاهرة تتحرك ناحية الباب الرئيسي للكلية، وتعجبت لسلوك الحرس عندما فتحوا الأبواب على مصراعيها على غير المعتاد، وعندما نظرت ورائي ولمحت كثافة وطول المظاهرة انتشيت بقوة، وأعجبني شعور الهتاف سائرا ولم أكن قد جربته من قبل، وأعجبني أكثر مشهد الواقفين على الأرصفة يتطلعون إليَّ (أنا الزعيم)، وأنا أرمقهم بزهو من علٍ وأتوغل في نوعية الهتافات أكثر، وفي غمرة الأحداث ونشوتها لم ألحظ اختفاء المنظمين المعتادين لهذه التظاهرات، لكني لاحظت أن معظم الصفوف المتقدمة هم من طلبة الفرقة الأولى، ولاحظت أيضا أن المظاهرة تسير في

خط سير مرسوم بعناية؛ فقد أغلق شارع وفتح آخر، حتى وجدنا أنفسنا في مواجهة أنساق هائلة من الشرطة مدججين بالمعدات اللازمة لمثل هذه الأحداث، ثم دوت صفارات عربات الشرطة من الخلف، كان الشارع قصيرا وتم حصارنا بإحكام وبدأت حرارة الهتاف تزداد وكلما اقتربنا من النسق الأول من الجنود المتحفزين كنت أتوغل أكثر في نوعية الهتافات في محاولة لا شعورية لاكتساب الثقة وطرد الخوف، إلا أن ذلك لم يستمر طويلا فسرعان ما انقض عليَّ اثنان من الجنود، وفي لمح البصر كنت مكوما مقيد اليدين في الصندوق الخلفي لعربة الشرطة، وبدأ الهرج والمرج، ولم أرَ ماذا حدث بعد ذلك في الشارع. ولم يكن يعنيني ذلك، فقد ترسب في داخلي أنني الوحيد الخاسر في هذا الموضوع.

بعد أيام الحبس الأربعة والتحقيقات المتوالية، والتحري عني وعن نشاطي السياسي المزعوم وكم المعاناة النفسية التي بدت على ملامحي، نظر إليَّ المحقق في اليوم الرابع نظرة فاحصة مشوبة بشيء من الإشفاق ونطق بقرار الإفراج عني. وبينما يدون الكاتب القرار أحسست أنني ولدت من جديد، واتخذت أنا أيضا قرارا ولم أرجع عنه إلى اليوم.

استغربت أمي من درجة اتساخ غياري الداخلي ورائحة جوربي وياقة القميص وأشياء أخرى، وعلى غير المعتاد لم تشأ المجادلة – نظرا لمرض أبي– في الأسباب الواهية التي عرضتها كسبب لغيابي طيلة هذه المدة، إلا إن المرأة ظلت صامتة، وأظن أنها كانت تحس معاناتي بينما أتحاشى أنا عينيّ أبي، عدت إلى الكلية، ولم أنسَ القرار الذي اتخذته لحظة الإفراج عني. وفي المحاضرة الأولى

بدا صوت همهمات يتصاعد خارج المدرج وبعض هتافات متناثرة، استأذنت من الدكتور كي أغلق باب المدرج (حتى لا تزعجنا هذه الضوضاء).

هوامش

(١)

أنا أميركم العائد ألا تعرفوني؟

جئت أحرركم ألا تريدونها؟

تلك التي ولدتم بها

وغيركم لا يستطيع النوم بغيرها

ألا تذكرونها؟

نسيتموها؟

الحروف الأربعة.. ألا تذكرونها؟

التي يموت الناس لأجلها وربما لا ينالونها

جئت أحرركم

من آلام اجترار الحزن

في ليالي السبي الطويلة

ألا تتشوقون لأمسيات الفرح

في أرض المواعيد؟

ما لكم هل استمرأتم شعور العبيد؟

ما لكم لا تهللون؟

أنسيتم كلمات النشيد؟

جئت أحرركم

ما لكم تستقبلوني قعوداً؟

ولا ورود ولا عناق

لا هتاف ولا نفاق

ألا تعرفوني؟ أنا أميركم العائد

جئت أحرركم

من دموع الخوف في الصباح

من تلاوة سفر الحزن الأزلي

كل مساء

أنا من كنتم تهتفون له حتى تنزف حناجركم دماء

جئت أحرركم .. ألا تريدونها (الحمراء)؟

يا إلهي لم يعد الناس يريدون الحرية!

ألعلها تغيرت الأرض؟

أم أنها تغيرت السماء؟

(٢)

أخرج من السرداب

أخرج من الدهليز

أخرج من البرزخ

أخرج لتنقذنا

أخرج لتؤمنا على الملأ

في ساحة المعبد الكبير

سئمنا الصلاة مختبئين

أخرج لترى الظلم بعينك

فقد جاء الحيثيون

وجاء البربر وجاء الهكسوس

وعاد العبرانيون هدموا المعبد

قتلوا الهيباشيون حرقوا المكتبة

أغاروا على طيبة والنهر حزين

والأسماك هربت والضروع جفت

والأرض لم تعد تنبت إلا حسكا

ونفد مخزون الحنطة والنبيذ

ونبشوا قبور الملوك

وعبثوا برفات الملكات

نهبوا أواني المذبح

وهدموا مائدة القرابين

ونادوا بآلهة غريبة

أخرج وكفانا عبودية

كفاك هذه الغيبة الطويلة

وكفانا من هذا المشهد المهين

أخرج من هذا السرداب اللعين

كفاك اختباءً

كفانا انتظارا

أخرج لتحررنا

تحررنا من الغلاة

وتحررنا من الولاة

ومن الآمرين والنهاة

والمتفيقهين والنحاة

والرواة والرعاة

ووكلاء الإله

إصعد من تحت الهرم

أو اهبط على السحاب من السماء

أو تعال من الجنوب

او من على جبال سيناء

تعال من أي اتجاه

فنحن في انتظارك

نحن في انتظارك يا ظل الإله

الصورة السابعة عشر

حياة كاترينا

حياة كانت صغيرة لا تتعدى السابعة عندما التحقت بخدمة مدام كاترينا، جاءت من الأرياف المنتشرة على طول غرب النهر المقابل لشبرا في أوائل القرن الماضي، كان أبوها يبيع اللبن في الحي، وعندما طلبت منه مدام كاترينا البحث عن فتاة صغيرة تعينها في أشغال البيت، سارع على الفور وأحضر لها حياة صغرى بناته، ولم تتأخر حياة كثيرا في التأقلم مع حياة سيدتها الجديدة.

مدام كاترينا كانت هذه هي هجرتها الثانية هربا من العثمانيين، جاءت من أرمينيا إلى سوريا عقب المذابح ولم يطب لها المقام، فقد كان شبح العثمانيين حاضرا في الشام كله، أوائل الأربعينيات جاءت إلى مصر مع جزء من عائلتها نزلوا من الباخرة القادمة من طرسوس في الإسكندرية. استضافها أبناء جاليتها لمدة شهر كالعادة لحين استقرار أوضاعهم، فقد كانوا جالية منظمة لهم تجمعهم وجمعياتهم ونواديهم، ولما عزمت على الاستقرار في القاهرة رشحوا لها حي شبرا؛ فهو البديل المقابل لحي باب توما ،الحي الذي كانت تسكنه في دمشق، ولأنها كانت تجيد أعمال التفصيل والخياطة لملابس النساء، خصصت مدام كاترينا غرفة في شقتها لماكينة الخياطة واستقبال زبائنها، وسرعان ما ذاعت شهرتها بين نساء الحي، وأصبحت مقصدًا لكثيرات.

حياة كانت أصغر بنات عم كامل، ومر عقد من الزمان على التحاقها بخدمة مدام كاترينا، يومها كانت في السابعة هزيلة نحيفة، لكن مسحة جمال مختبئ كانت تغطي ملامحها الرقيقة، ثم سرى المركب السحري مبكرا في جسد الصبية ففجر بركان أنوثة طاغٍ غير تضاريس جسد الفتاة، كما غيرت مدام كاترينا سلوكها وأسلوبها وملبسها، وكانت العلاقة بين حياة ومدام كاترينا قد تجاوزت بكثير مرحلة الخادمة وسيدتها، تجاوزتها بمراحل؛ فحياة أصبحت الشخص المهم في حياة مدام كاترينا، فهي مطيعة وذكية ومخلصة لسيدتها ومؤتمنة على أسرارها، وفي المقابل كانت المدام (وهذا لقبها الشائع بين الجيران في الحي) هي الشخص الأهم في حياة حياة، فهي لم تبخل عليها بأي شيء؛ أعطتها خبرتها في العمل والحياة وعلمتها القراءة والكتابة، ونشأ ونما نوع من الارتباط العاطفي بين السيدة والفتاة، وخصوصا بعد أن رحلت والدة الفتاة وانقطعت تقريبا علاقتها بأسرتها، وبعد أن أصبحت السيدة شبه وحيدة، فهي لم تنجب من زواج سابق فشل مبكرا، كما رحل أخوها الذي جاء بصحبتها من سوريا إلى فرنسا، وكما كانت هذه هي الهجرة الثانية لمدام كاترينا كانت هذه هي الهجرة الثانية أيضا لحياة، فأبوها جذوره من أقاصي الصعيد، وكما عبرت مدام كاترينا البحر بحثا عن الأمان، حياة عبرت النهر أيضا بحثا عن الحياة.

في أواسط الخمسينيات توترت الأوضاع في مصر وتغير المناخ السياسي والاجتماعي، وبدأت موجة هجرة للأقليات اليهود واليونانيين والإيطاليين وبالطبع الأرمن وغيرهم، وعندما لمحت مدام كاترينا لحياة بما

يدور في ذهنها لأول مرة عن احتمال الرحيل بهتت الفتاة وظلت صامتة، وبدا أنها مذهولة من هول المفاجأة، وانسحبت إلى مرقدها وهي تجهش بالبكاء، لم تكن مدام كاترينا أقل حزنا من حياة، فلم تكن راغبة في الرحيل؛ فقد اشتهر (أتيليه المدام) وتعاظم مدخولها، كما وأن ارتباطها بالفتاة شكل أيضا عائقا كبيرا، لكن بدء الرحيل المتسارع لأبناء عرقها جعلها في حيرة من أمرها، وعليها اتخاذ قرار في أقرب وقت، فإن كانت إمكانية ووسيلة المغادرة متوافرتين الآن فربما لا تتوافران غدا.

ساد الوجوم الحزين على جو المكان، وتوقف صوت ماكينة الخياطة، وتوقف صوت الجرامافون وأسطوانات المدام المحببة، وبدا لو أن الجميع في حالة حزن على عزيز رحل، غالبت السيدة دموعها واستدعت حياة. جاءت شبه باكية، بادرتها المدام: "الأيام تجري يا حياة، وعليَّ أن أتخذ قرارًا قبل فوات الأوان، والعائق الوحيد أمامي عن قرار الرحيل هو أنت، قلبي لا يطاوعني أتركك، ولو قبلتِ سأترك لك كل ما يخصني وأرحل". ارتمت الفتاة في حضن سيدتها والتي احتضنتها بدورها، وانخرطت المرأتان في نوبة بكاء طويلة، ردت حياة بصوت متهدج، وهي لا تزال في حضن كاترينا: "أنا لا أريد سوى العيش معك، إن كنتِ مصرة على المغادرة خذيني معك، وإن قررت البقاء سأخدمك حتى آخر يوم في حياتي ولن يكون لي أحد سواك". ردت كاترينا بصوت خفيض: "لكن يا ابنتي هذه سنة الحياة.. ستشتاقين يوما إلى زوجٍ وأولاد وأسرة"، حينئذ انتصبت حياة وتركت حضن كاترينا، ومسحت دموعها وأمسكت بيد سيدتها وتشبثت بها وأخذت في

تقبيلها وهي تهمس: "لن يكون لي أسرة سواك يكفيني العيش معك حتى آخر العمر". ومن صوتها الصادق وإحساسها الحقيقي، اتخذت كاترينا قرارها الأخير: لن تذهب إلى أي مكان.. ستعيش هنا وتموت هنا، لن تفارق حياة. وتمييزا لها عن أخرى تحمل نفس الاسم في الشارع، وتعبيرا عن مدى عمق ارتباط حياة بسيدتها والذي كان يعرفه الجميع، لقبوها مجازا بـ"حياة كاترينا".

هوامش

(١)

ربما أعرفك
وربما لا أعرفك
لكني أعرف أن بيننا شيئا مشترك
ربما وشما على ذراعك
أو على معصمك
أو على جبهتك
وربما تقابلنا يوماً
في عرس أو مشاجرة
وربما تجاورنا في حافلة
أو سرنا في مظاهرة

ربما أعرفك وربما لا أعرفك

لا يهم المهم أن بيننا مشترك

قد يكون الماء أو الهواء

أنا متأكد أن بيننا شيئا ما مشترك

وإلا ما كنت قد مشيت دامعاً في جنازتك

أشيعك دون أن أعرفك

ترى يا صاح هل غادرت مضطراً أم برغبتك؟

على أي حال

تذكر أنني مشيت في جنازتك دامعا

أشيعك دون أن أعرفك

(٢)

طابور المقهورين هو الطقس اليومي

قائمة الأسئلة الموحدة لكل البشر

لاجئ من أين؟

لاجئ ممن؟

لاجئ من ماذا؟

قائمة الإجابات الموحدة لكل البشر:

لاجئ من تجار الحروب

لاجئ من تجار الكلام

لاجئ من تجار السيوف

لاجئ من تجار السلام

لاجئ من مربع الخوف

من مثلث الانهزام

لاجئ من الجهل

لاجئ من القهر

لاجئ من الفقر

لاجئ من تجار القضايا

لاجئ من مفتشي النوايا

وراصدي الخطايا

لاجئ من مفتشي القلوب

لاجئ من مفتشي العقول

لاجئ من سكان الكهوف

وتجار الهوامش والمتون

لاجئ من شعور القليلين

ومن بطش الكثيرين

لاجئ من أرضي

لاجئ من لون جلدي

وشكل جمجمتي

لاجئ من مشاهد الاغتصاب

من مشاهد الذبح

من الأمام ومن الخلف

أود أن أعيش مثل بقية البشر

أود أن أعيش الحياة

كما أمر الإله

حرًّا من الحروب

حرًّا من الحروف

حرًّا من السيوف

حرًّا من الخوف

الفهرس